Journal of Arabic Research
eISSN: 2664-5807, pISSN: 26645815
Publisher: Allama Iqbal Open University, Islamabad
Journal Website: https://ojs.aiou.edu.pk/index.php/jar

Vol.06 Issue: 01 (Jan-June 2023)
Date of Publication: 30-June 2023
HEC Category: Y (July 2022-2023)

Article	علاقةُ الإسلام والغرب في الرواية التاريخية: رواية ريتشارد وارين فيلد "سيوف الإيمان" أنموذجاً **Islam and the West Relationship through the Historical Novel: Richard Warren Field's Novel The Swords of Faith as an Example**
Authors & Affiliations	**Fuad Abdul Muttaleb** Jerash University - Faculty of Arts - Jordan
Dates	Received:05-08-2023 Accepted:12-12-2023 Published:**31-12-2023**
Citation	**Fuad Abdul Muttaleb** , 2023 علاقةُ الإسلام والغرب في الرواية التاريخية: رواية ريتشارد وارين فيلد "سيوف الإيمان" أنموذجاً [online] IRI - Islamic Research Index - Allama Iqbal Open University, Islamabad. Available at: <https://jar.aiou.edu.pk/?p=74722> [Accessed 25 December 2023].
Copyright Information	© 2023 علاقةُ الإسلام والغرب في الرواية التاريخية: رواية ريتشارد وارين فيلد "سيوف الإيمان" أنموذجاً by **Fuad Abdul Muttaleb**, is licensed under Attribution-ShareAlike 4.0 International
Publisher Information	Department of Arabic, Faculty of Arabic & Islamic Studies, Allama Iqbal Open University, Islamabad

Indexing & Abstracting Agencies

IRI	Australian Islamic Library	HJRS	DRJI

ABSTRACT

This study examines Richard Warren Field's novel *The Swords of Faith* (2010) from the perspective of the relationship between Islam and the West. This study stands out for its monitoring of an American novelist's attempt to shed light on some of the prevailing perceptions of Arabs and Muslims in the West, in light of the repercussions of the events of September 11, 2001 on the relationship between the West and the Islamic East. It deals with the novel that has not yet been translated into Arabic, nor are studies available in Arabic yet, by exploring the story of the conflict drawn by the novel that took place in the past between the two parties and begins with the Battle of Hattin and ends with the failure of the Third Crusade (1188-1192) and the signing of an agreement between Saladin and Richard the Lionheart. Field continues to work as a balanced writer who defends the accused Arabs and Muslims through the scenes of his novel, exposing Western allegations and subjective assumptions about Arabs and Muslims and refuting them, in a distinct artistic, historical, dialogue style in several places in the novel, which are often linked to terrorism, backwardness and a state of hostility against the West. To illustrate this issue, the narrator deliberately formulates a dialogue between two sane characters from opposing camps, Pierre and Rachid that continues until the end of the novel. As a result, this novel can be described as one of the most objective American works in its portrayal of Arab and Muslim issues, as it criticizes intolerance, aggression, and cruelty, calls for understanding, and

hints at the possibilities of that relationship in the present and future. The study uses a descriptive and analytical method to explore and comment on aspects of the historical narration of events. It refers to the fictional text as a primary source and to some historical works as secondary references issued on the novel in English or on the relevant period.

Keywords: Richard Warren Field, *The Swords of Faith*, Third Crusade, Saladin, Richard the Lionheart, Islam and the West, Modern American Novel.

مقدمة: المؤلفُ وأعمالُه

لا بدَّ في البداية من تقديمٍ موجزٍعن حياة المؤلِّفِ الأمريكي ريتشارد وارين فيلد بالنسبة للقرَّاءِ والدارسين بالعربية والذين لم يتعرَّفوه من قبلُ. فهو ولدَ في 16 نوفمبر 1954 في روتشستر، نيويورك، وترعرعَ في منطقة خليجِ سان فرانسيسكو، وتخرَّجَ في مدرسة لوس غاتوس الثانويةِ عامَ 1972. درَس في جامعة الباسيفيك وحصلَ على الشهادة الجامعيةِ الأولى في "العلوم السياسية والموسيقى" في العام 1976. وإنْ عُرِف بين زملاءه بلقب "ريك"، فإنَّه كتبَ جميعَ أعماله ونشَرها تحت اسم "ريتشارد وارن فيلد". عاش مع زوجتِه كاري وطفليه ميشيل ورايان، في المنطقة الجنوبية من كاليفورنيا. وفي الحقل المهني، عملَ بداية في مجال التأليفِ والموسيقى فتطوَّرتْ موهبتُه وإبداعُه. وأظهرَ اهتمامَه بالقضايا السياسية والتاريخية. وتعكس كتاباتُه أيضاً اهتماماتِه المتنوِّعةَ. توفي فجأة في 16 يونيو 2014. [1]

وأساسُ كتاباتِه التاريخية يتَّبعُ فيه طريقةً مميَّزةً فيستعملُ أحداثاً موثقة حقيقيةً ومهمَّة إليهُ ولقرَّائِه. ويتبنَّى في أحيانٍ كثيرةٍ مبادئَ مفيدةً ومُوحِيةً للدارسين، ويربط مخاوفَ الإنسانِ الراهنةَ بالمشكلاتِ المثارةِ. لذلك، ربما يفضِّلُ في كتاباتِه أنْ يبدأَ الأحداثَ من منتصفِها. وتُنبِئ كتاباتُه عن مؤلِّفٍ عاقلٍ ومتَّزنٍ يولي اهتماماً لوجهاتِ نظر الآخرين. كتب بضعَ رواياتٍ، فنشر رواية "سيوف الإيمان" عام (2010)، وستُدرَسُ على نحوٍ مفصَّلٍ كمثالٍ بارزٍعن تصويرٍ متوازنٍ في الرواية الأمريكية المعاصرةِ لعلاقة الغربِ والإسلام، وذلك في شخصياتٍ

وأحداثٍ واستجاباتٍ تمثّلُهما معاً. وشارك مع الدكتور آلان فلوجر، وهو مقوّمُ عظام، في تأليف كتابٍ عنِ الصحة عنوانُه "الموت حتى الكعب" عام (2011). ونشرَ في العام (1977) رواية "الانتخاب"، وتصوّرُ مرشحاً بديلاً ثالثاً. ونُشرتْ روايتُه " السلطان والخان" عام (2015) أي بُعيد وفاته. وله مقالاتٌ أدبيةٌ وسياسيةٌ وتاريخيةٌ، فيها آراءُ عن رواياتِه والإسلامِ والحملاتِ الصليبيةِ وأحداث سبتمبر/أيلول عام 2001 والحرب على العراق وغيرِ ذلك.[2]

ونشرتْ دار سترايدر نولان ميديا روايةَ "سيوف الإيمان" أولَ مرةٍ. وحصلت هذه الروايةُ على جوائزَ، منها ميداليةٌ برونزيةٌ من "جوائزِ كتاب الناشرِ المستقلِّ" لعام 2010، والمركزِ النهائي لأفضل كتاب لعام 2010 في فئة الرواية التاريخية من "أخبار كتاب الولايات المتحدة"، وحصلتْ على جائزة أفضلِ كتابٍ لعام 2011 ضمن فئةِ الرواية التاريخيةِ من جوائز الكتابِ الدوليّ. ووُصِف هذا الكتابُ أنَّهُ "روايةٌ تاريخيةٌ" لأنَّ مؤلِّفَه يستعملُ الحوارَ لوصفِ أحداثِ هذه القصةِ بالاعتماد على وقائع تاريخيةٍ، إذ يؤرّخُ لأحداثِ الرواية يوماً بيوم، ويذكرُ في الصفحة الأخيرة منها المصادرَ الأوليةَ التي ساعدتْ في تشكيل الأساس التاريخيّ الذي بُنِيت عليه القصةُ – بما في ذلك مصادرُ الحروبِ الصليبية، وصلاحِ الدين، وشخصياتٍ تاريخيةٍ أخرى – التي جعلتْها مفيدةً وممتعةً وسهلةَ القراءة مع طولِها الذي يصلُ إلى (515) صفحةً. فالحروبُ الصليبيةُ وصلاحُ الدين وريتشارد قلبُ الأسد ليست سوى جزءٍ من الأحداث التاريخيةِ التي يستعملُ لها المؤلفُ نموذجَ الحوار لوصفِها والتعليقِ عليها. ولذلك كان عليه أن يلتزمَ بالتفاصيل التاريخيةِ المحدَّدةِ، لكنَّه أضافَ إلى الشخصياتِ الحقيقيةِ بعضَ الشخصياتِ الخياليةِ: تاجرٌ مسلمٌ يُدعَى رشيدَ بن ياسر وفارسٌ مسيحيٌّ اسمُه بيير بترون وهما من الشخصياتِ الرئيسةِ في الرواية. لذلك يمكن القولُ إن الراويَ هو إلى حدٍّ كبيرٍالمؤلفُ نفسُه أيْ هو راوٍ عليمٌ بشخصياتِه كلِّها وبالأحداثِ التي ينخرطون بها وبعواطفهم وأفكارِهم وما يدور في خواطرهم. والإشارةُ إلى المؤلف في أثناء البحث إنما هي إشارةٌ إلى وجهة النظرِ في الرواية أو ما يُفصِحُ عنه الراوي أو موقفُه.

وتضطلعُ شخصياتُ فيلد الخياليةُ بدور مهمٍّ في الموضوعاتِ والحواراتِ الأساسيةِ في الرواية، وفي مقدمتها إمكانيةُ التعايشِ السلميّ بين الناس العاديّينَ من أقطابٍ متعارضةِ الثقافةِ والدينِ ولو في أشدِّ أوقات النزاع. ويجعلُ المؤلفُ هذه الإمكاناتِ معروفةً بالكشف عنِ التفاعلاتِ بين القائدينِ: صلاحِ الدين وريتشارد قلبِ الأسد. فمنِ استعراضِ الجوانبِ العاطفيةِ لحياة ريتشارد قلبِ الأسد، حرَصَ فيلد على ذكر الجزء العاطفيّ من الرواية. وهناك روايةٌ مختلقةٌ لفارسٍ غربيّ يُدعَى بيير تزيد من تشويق الكتاب وروعتِه بإثارة قلقِ القارئ بشأن الكشفِ عنِ النتائج التي يقصدُها المؤلفُ. ويسعى فيلد جاهداً، على وجه الخصوص، إلى تسليطِ الضوء على فضائل الإسلامِ بكونه ديناً متسامحاً وعلى مواقف المسلمينَ الحقيقيّينَ.

وعنوانُ الكتاب خصوصاً، مع أنَّ ريتشارد وصلاحَ الدين شخصيتان مركزيَّتانِ يقول فيلد بهما أشياءَ كثيرةً، لم يضمِّنْهما فيه على غرار روايتِه الأخيرةِ "السلطان والخان" (2015). ومع ذلك، اختار فيلد تسميةَ الروايةِ "سيوف الإيمان" للإشارة إلى الصراع الدينيّ العنيفِ والطويلِ، والذي يتَّسعُ ليشملَ علاقةَ الإسلامِ والغربِ. فموضوعُ الحملاتِ الصليبية يثيرُه بانتظامٍ المسلمون المهتمُّونَ بالدين والتاريخ والسياسةِ في حديثهم عنِ المواجهة بين الإسلام والغرب، ولهذا السببِ كان من المناسب والمثيرِ مناقشةُ أحداثٍ تاريخيةٍ مع ربطها بالحاضرأيضاً. فهذه القصةُ، يمكنُنا القولُ، مستوحاةٌ أيضًا من أحداث 11 أيول/ سبتمبر 2001. علاوة على ذلك، يمكنُنا تبيُّنُ ثلاثةِ إلهاماتٍ معاصرةٍ ساعدتْ في إنشاء "سيوف الإيمان" تتضح في أثناء قراءة الرواية؛ وتشملُ هذه العواملُ: أولاً، إنَّ هناك طرقاً دينية مختلفةً توصلُ إلى الله؛ ثانياً، من غير الأخلاقيّ ترويعُ الأبرياء وقتلُهم مهما كانت هويتهم؛ وثالثاً، من الواجب رفضُ السماح لعددٍ قليلٍ من المتعصِّبينَ بتشويهِ صورة الإسلام كما يجبُ ألا يُعامَلَ المسلمون جميعاً انطلاقاً من هذه الصورةِ.

كانتِ الحملةُ الصليبيةُ الثالثة بين عامي (1189–1192)، وسعى فيها المسيحيُّونَ الأوروبيُّونَ عبثًا لاستعادة الأراضي المقدَّسةِ من المسلمين، جوهرِ عرضِ الرواية للحروب الصليبيةِ. فرسمتِ اثنتين من أهمِّ شخصياتِ قادةِ تلك المرحلةِ، من المسلمين والمسيحيين: همُ الأميرُ الإنجليزي والملكُ ريتشارد قلب الأسد،

الذي مثّلَ القوة الغربيةَ في ذلك الوقت، والسلطانُ المسلمُ صلاح الدين الأيوبيُّ، الذي مثّلَ القوة الإسلاميةَ في ذلك الوقتِ. وانخرط الزعيمان الدينيانِ في صراعِ السيطرةِ على القدسِ المدينةِ المقدَسةِ عندَ قيامِهما بواجباتِهما على هذا المنوالِ، وتُمثلُ هاتان الشخصيتانِ التاريخيتان بطلينِ رئيسينِ يحملان سماتِ البطولةِ والزعامةِ في الرواية، وفي محاولةِ التخفيفِ من التوتر الراهنِ باستعمالِ الماضي، يربط فيلد على نحو ذكيٍّ الصراعَ المعاصرَبالصراع في الماضي. وفضَّلَ فيلد تقديمَ الإسلام بالكلمة، وتحديداً بالكتابة عنه. ولذلك، فالحملةُ الصليبيةُ الثالثة وأحداثُها التي وقعت فيها بمنزلة استعارةٍ للحديث عنِ الإسلام المعروفِ بتسامحه وعدلِه ونزوعِه إلى السلام.

نشأ فيلد في جوٍّ متعدّدِ الثقافاتِ في سان فرانسيسكو، فساعدَه ذلك في قدرته على الفهم والتفاعلِ مع الآخرينَ. وأكَّدَ ارتياحَه للكتابة عن قيمة احترامِ البعضِ للبعض الآخرِ ولو في خضمّ المعركةِ وقدَّمَ المثالَ التاريخيَّ للمهابة التي كانت قائمةً بين صلاح الدينِ وريتشارد قلب الأسد. فضلا عن ذلك، أعربَ عن سعادته بالكتابةِ عنِ السبيل التي يمكنُ فيها للناس أنْ يتعايشوا بسلامٍ بدلاً من الصراع، وكثيرًا ما يسلط الضوءَ على اختلافاتِهم. وعليه، يمكنُ أنْ تكون الأعمالُ الأدبيةُ لهذا المؤلفِ الأمريكيّ نموذجًا يُحتذَى به لدى الكتَّابِ الآخرين المتفهّمينَ والموضوعيّينَ في كتابتهم عنِ العرب والمسلمين، لا سيما في كيفية تعاملِه مع الصراع الحاليّ الجادّ بين الغرب والإسلام. إنه يرسمُ صورةً إيجابيةً للإسلام تقدّمُ علاجاتٍ عمليةً مع مراعاة أسبابِ الخلاف.

أهمّيَّةُ الروايةِ والدراسةِ وهدفُهما:

إنَّ أفضلَ الأعمالِ التي كتبَها فيلد تدورُ حول العلاقاتِ بين الشرق العربيّ المسلمِ، والغربِ الأوروبي-الأمريكي. فمن الواضح أنَّ فيلد يرى في روايته أنَّ الحملاتِ الصليبيةَ ذاتُ غرضٍ دينيّ في الخطِّ الأولِ تهدفُ للوصول إلى الأراضي المقدَّسةِ وتحريرِها من أيدي المسلمين، وليس هناك مطامعُ مادّيةٌ أوِ استعماريةٌ واضحةٌ أو استغلالٌ للدين من وراء تلك الحملاتِ. وإنْ قتلَ الصليبيون كلَّ مَنْ صادفوه ودمَّروا كلَّ شيءٍ في طريقهم

وصولاً إلى القدس التي قامُوا فيها بمذبحةٍ عظيمةٍ. فمن الناحية التاريخيةِ تثبتُ الحملاتُ الصليبيةُ أطروحةَ إدوارد سعيد الواردةَ في كتاب "الاستشراق" من أنَّها سعيٌ أوروبيٌّ للهيمنة على الشرق واستغلالِ خيراتِه واستعمالِ الدين غطاءً لذلك. وبالمقابل لجأ المسلمون بدورهمْ إلى الدينِ بكونه عاملاً موحداً يؤهِّلُهم لمواجهة الغربيين. وههنا من المفيد أن نتفهَّمَ تضمينات كلمةِ "حملة صليبية" كي نرى كيفيةَ إرخائها بظلالها على النصِّ الروائيِّ التاريخيِّ، والحقيقة أنَّ وجهةَ النظر الغربيةَ نموذجيةٌ في تمثيلها ادِّعاءَ الغرب بخصوص القيامِ بتلك الحملاتِ وأهدافِها المقدَّسةِ.

كثيراً ما نصادفُ تعبيرَ "الحملاتُ أوِ الحروبُ الصليبيةُ" في الكتب المدرسيةِ والجامعيةِ وكتبِ التاريخ والسياسةِ حتى وقتِنا الحاضرِ، بيد أنَّ هذا التعبيرَ ما زال شائعاً ويُستعمَلُ، ربما بالمعنى المجازيِّ أوِ الرمزيِّ وإنْ عادتْ هذه الحملاتُ أوِ الحروبُ إلى القرونِ الميلادية الحاديَ عشرَ والثانيَ عشرَ والثالثَ عشرَ، ففي الاستعمالِ اليومي المتعارفِ عليه يشيرُ إلى الميل الدينيِّ الغربيِّ المتطرِّفِ، والتعصُّبِ الأعمى المسلَّحِ الذي أسفرَ عن فظائعَ كبيرةٍ، وكان سبباً لسفك الدماء، وهلاكِ أعدادٍ كبيرةٍ من البشر في الشرق الإسلاميِّ و بيزنطةَ وأوروبا، ومازال يشيرُ إلى الكثير من الأعمال الغربيةِ الموجَّهةِ ضدَّ الشرق عموماً. ويشيرُ المؤلفُ في "ملحوظته" الآنفةِ الذكرِ إلى أنَّ هناك كلمةً لن يصادفَها القرَّاءُ في هذه الرواية حول ما يسمِّيهِ التاريخُ "الحملة الصليبية الثالثة": وهي "حملةٌ صليبيةٌ" أو "صليبيٌّ" ولا يستعملُها الجنودُ الذين يخوضون المعاركَ الموصوفةَ في هذه الصفحاتِ. ولم تستعمَلْ هذه الكلمةُ إلا مؤخَّراً لوصف النشاطاتِ الحربيةِ في تلك الفترةِ. وكان الجنودُ المسيحيونَ في تلك الآونةِ يصفون أنفسَهم بالحجيج المقاتلِ أو بحملةِ الصليب ...". و ظهرتْ كلمةُ "حملةٌ صليبيةٌ"، وهي كلمة هجينةٌ من لغة فرانكو- إسبانية في القرون الوسطى، وشاعتْ في اللغة الإنجليزية فقط منذ القرن الثامنَ عشرَ، واستُعمِلتْ في اللغة الأنجلو- أمريكية مرادفةً لقضيةٍ حميدةٍ تجري متابعتُها بقوة بدءاً من التبشير المسيحيِّ الهادئ إلى المزاج المتشدِّدِ. وإنْ كانتْ هناكَ رومانسيةٌ ورديةٌ ومضلِّلةٌ، فإنَّ صورةَ الفرسانِ المرسلينَ يحملون الصُّلبانَ على الأردية والراياتِ، ويقاتلون من أجل إيمانهم تحت شمسِ أرضٍ غريبةٍ، تحتلُّ مكانةً مألوفةً في

واجهة التصوُّراتِ الغربيةِ الحديثةِ للماضي.[3] وإنْ رأى الفيلسوفُ والمؤرخُ الأسكتلنديُّ في القرن الثامنَ عشرَ ديفيد هيوم أنَّ الحروبَ الصليبيةَ هي "أكثرُ المعالمِ الأثريةِ للحماقة البشريةِ ديمومةً وظهرت حتى الآن في أيّ عصرٍ أو أمَّةٍ"، فقدِ اعترفَ بأنها " استحوذتْ على اهتمام أوروبا وشغفتْ بها وأثارت منذ ذلك الحينِ فضولَ البشريةِ".[4]

ولم تكنِ التصوُّراتُ الروائيةُ المكتوبةُ باللغة الإنجليزيةِ تجاهَ العرب والمسلمين واقعيةً إلا في أحوالٍ قليلةٍ. وكان لأحداثِ الحادي عشر من سبتمبر 2001 تأثيرٌ سلبيٌّ إضافيٌّ كبيرٌ في نظرة الغرب تجاه العالَمينِ العربيّ والإسلاميّ، ليس في أوروبا والولاياتِ المتحدةِ بل في بلدانٍ أخرى. ورصد الأدَبانِ الأمريكيُّ والبريطانيُّ الحديثانِ بوضوح هذه العمليةَ الخطيرةَ وعلَّقا عليها. وكان تصويرُ العرب والمسلمين أمراً مسيئاً حقاً في وسائل الإعلامِ الأمريكيةِ المعاصرةِ، وأثَّرت بعضُ المبادئ الخاطئةُ المتداولةُ في الأعمال الأدبيةِ. فكتب روائيُّونَ غربيُّونَ، لا سيما البريطانيون والأمريكانُ، رواياتٍ افترَوا فيها على المسلمين أعظمَ الافتراء. نذكر منهم على سبيل المثالِ لا الحصرِ: ف. س. نيبول في روايته "رجال المدغرة – Gurrills" (1975) و "انعطافة في النهر– A Bend in the River" (1979) وتكشفانِ بُغْضَ المؤلفِ الفطريَّ تجاهَ الإسلام والآخرِ، أي ما يسمَّى بالعالم الثالث،[5] وجون أبدايك في روايته "الانقلاب –The Coup" (1975) و"الإرهابي – Terrorist" (2006) وتُظهرانِ تزويراً وبهتاناً دفاعيينِ وضيقَ أفق في فهم الإسلام والشرقِ،[6] ورالف بيترز في روايته "بعد معركة هارمجدون – The War after Armageddon" (2009) خصوصاً وتُظهِر استصغاراً واحتقاراً متأصّلينِ تجاهَ العرب والمسلمين عموماً،[7] وكتب الروائيُّ البريطاني آندي مكناب رواية "برافو Bravo Two Zero – 02" (1993) وفريدريك فورسيث رواية "قبضة الله – The Fist of God" (1994) وتصوّرانِ الحرب على العراق من تجربة جنديَّينِ وتحكيانِ الصورَ النمطيةَ عن منطقة الخليج العربيّ ودورِ بريطانيا والغربِ في قضايا المنطقة العربيةِ وتصديرِ الحضارةِ والديمقراطيةِ.[8] وكتب روائيون غربيونَ رواياتٍ متحيّزةً بأشكالٍ ودرجاتٍ متفاوتةٍ منها: رواية ديفيد أغناطيوس"عملاء البراءة – Agents

of Innocence" (1987) وإيان ماكوين" السبت – Saturday" (2005)، وريتشارد فالانجان "الإرهابي المجهول – The Unknown Terroris " (2006). وتحتاجُ كلُّ رواية منها دراسةً مستقلةً متأنّيةً ومفصَّلةً. وثمةَ رواياتٌ أوروبيةٌ وأمريكيةٌ تطرّقتْ إلى علاقةِ الإسلامِ والغرب بطريقة أكثرَ اعتدالاً وإنصافاً، منها على سبيل المثال: رواية محسن حميد "الأصولي المتردد – The Reluctant Fundamentalist" (2007).[9] وكتبتِ الصحفيةُ الأمريكيةُ إيمي والدمان رواية "التقديم إلى الجائزة" (2011) وتتَّسمُ بالحوار والحياديةِ في النظر إلى علاقة المسلمين بأمريكا وقضيةِ الإرهاب.[10] وتقعُ روايتُنا "سيوفُ الإيمان" في هذا النوعِ من الروايات.[11] وصدرتْ باللغة الإنجليزية دراساتٌ ومراجعاتٌ ومقابلاتٌ وأفلامٌ حول هذه الرواياتِ وعلاقةِ الغربِ والإسلام على نطاق واسعٍ بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 خصوصاً. ولا بدَّ في هذا السياقِ من ذكرِ أنه لم تصدرْ دراساتٌ لهذه الروايةِ بالعربية في حدود علمِنا، لكن هناك عملان أساسيان وثيقا الصلة بدراستها أفدْنا منهما كثيراً إيحاءً واقتباساً، الأول، عملٌ لجلال عبد الله المرازيق، عنوانُه "تصوير العرب والمسلمين في الرواية الأمريكية الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد"، وهي رسالة ماجستير كُتِبتْ بالإنجليزية في جامعة جرش: 2014؛ وتقارنُ روايةَ فيلد برواية بيترز الآنفةِ الذكر. أما الثاني فرسالةُ دكتوراه لنسرين توفيق يوسف، جرتْ في جامعة ليستر في بريطانيا عام 2017 تحت عنوان "تمثيلات معاصرة للحملة الصليبية الثالثة في نصوص بريطانية وأمريكية" وتدرسُ رواية "سيوف الإيمان" وروايات أخرى تصوّرُ الحملةَ الصليبيةَ الثالثة وشخصيتي صلاحِ الدين وريتشارد وقضيةَ الصراع بين الإسلام والغرب.[12]

والمقصدُ الأساسيُّ من دراستنا هو تحديدُ كيفية تصويرِ العرب والمسلمين في الأدب الأمريكيّ المعاصر، بقراءة عملٍ روائيّ تاريخيّ حائزٍ على جوائزَ لريتشارد وارين فيلد "سيوف الإيمان" (2010)، كمثال مغاير كثيراً لتصوير المسلمين والعربِ في غيرها من الرواياتِ الأمريكيةِ المعاصرة. لذلك، لا بدَّ من الإشارة إلى الاختلافاتِ والتمييزِ بين التمثيلاتِ التقليدية والمعاصرةِ للعرب والمسلمين في الأدب الأمريكي. بالإضافة إلى ذلك، كان

لا بدَّ من توضيح كيفيةِ تأثُّرِ الأدبِ الذي كتِبَ باللغة الإنجليزية بأحداثِ 11 سبتمبر، والتي أشعلتِ التباغضَ بين الغرب والعالمِ الإسلامي. ومن الضروريِّ النظرُ في كيفيةِ تأثيرِ تلك الأحداثِ في الأدب وإحيائِها المشاعرَ المعاديةَ للمسلمين في الغرب. ويفيدُنا ذلك في فهم الدوافع الحقيقيةِ الكامنةِ وراء مواقفِ الروائيّينَ الأمريكيّينَ الحاليّينَ تجاه العرب والمسلمين، والتصوُّراتِ الخاطئة التي نشأتْ منهم سواءٌ عن قصد أم عن غيرقصد. إلى جانب ذلك، من المهمِّ البحثُ عن وجهاتِ نظرٍ منصِفةٍ حول العرب والمسلمين في الأعمال الإبداعيةِ لهؤلاء الروائيين الأمريكيين، وتظهرُ في رواية فيلد "سيوف الإيمان"، وتتناولُ الصورةَ الحقيقيةَ، الممثَّلةَ تمثيلاً ناقصًا للمسلمين والعرب في الغرب، بالتأكيد على إسهاماتِ المسلمين الأخلاقيةِ، وعلى علمهم وثقافتِهم، وتسامحِهم مع الديانات الأخرى، وميلِهم إلى التعايش السلميِّ مع الآخرين.

ومن تأثيراتِ أحداث 11 سبتمبر 2001 في الرأي العامِّ أنْ دفعت الأمريكيين والأوروبيين وغيرَهم لمعرفة المزيد عنِ العرب والمسلمين، لا سيما في الكتاباتِ الأدبيةِ التي تتناولُ المسلمين وعالَمهم كقضيةٍ جديدةٍ ومثيرة.ولذلك، زاد قدْرُ الأعمالِ المكتوبةِ التي تناقشُ أو تصوِّرُ الإسلامَ والمسلمين، في أمريكا وأوروبا. ومن اللازم تفحُّصُ انتشارِ الأعمال الأدبيةِ وتقويمُها والتي تلت هذه المرحلةَ الجديدةَ ووثَّقتْها عن كثب منذ حدوثها. وفي مواجهة هذا الوضعِ المتدهورِ الذي تراجعتْ فيه النظرةُ إلى العرب والمسلمين في الغرب في أمريكا خصوصاً، برزتْ بعضُ المبادراتِ المهمَّة من الغربِ والشرقِ كليهما، للنظر في الأسباب الكامنةِ وراء ما حصلَ. وحدثتِ الدعوةُ لتصحيح هذا الوضعِ الذي يؤذي الغربيّينَ والمسلمين معاً. فغالبيةُ مشكلاتِ هذه العلاقة من جهل متبادلٍ بين الجانبين، أدَّى إلى توسيع الانقسامِ بين الشرق والغرب، والأهمُّ من ذلك، أنه عزَّز تنافرَهما بدلاً من إمكانية التفاهمِ والتعاونِ.

ولذلك، حوَّلتِ الروايةُ الأمريكية انتباهَها إلى الشرق وصوَّرتْ عربًا ومسلمين بعينهم مع مراعاة التأثير العالميِّ للأوضاع المحيطةِ بالإسلام، وتصوِّرُ روايتنا كيفيةَ نظرِ الأمريكيين وشعورِهم تجاه العرب والمسلمين، وهو أمرٌ

لا يثير الدهشة لتأثير السياسةِ والثقافةِ في الأعمال الأدبية. ولذلك من الممكن استعمالُ عملٍ معاصرٍ لمؤلف أمريكي يتضمَّنُ آراءَ مختلفةً تتعلَّقُ بالعرب والمسلمين والغربيين كمثالٍ دراسيٍّ.

المناقشة:

تعدُّ رواية "سيوف الإيمان" محاولةً جديرة بالاهتمام لتصويرِها الصراعَ المعاصرَ الذي نشأ وازداد حدَّةً منذ هجماتِ 11 سبتمبر 2001، فهي تجسِّدُ فنياً الصراعَ التاريخيَّ بين "عدوَّينِ" تقليديينِ – المسلمين والمسيحيين الغربيين. وكان لهذا الموضوعِ تأثيرٌ كبيرٌ في السبيل التي كُتِبت فيها الروايةُ، ونقلتْ صورةَ العرب والمسلمين وحياتَهم وثقافتَهم بطريقة خاصةٍ. ويبدو من التواصل الاجتماعيِّ الوثيق للمؤلِف ريتشارد وارن فيلد، مع أشخاصٍ من خلفياتٍ عرقية مختلفةٍ في سان فرانسيسكو، منهمُ المسلمون والعربُ، ومطالعتِه الكتبَ عن تاريخهم وثقافتهم، أنَّه استطاعَ تكوينَ آرائه الخاصَّةِ حول هؤلاء الأشخاصِ من دون تدخُّلِ عواملَ خارجيةٍ، مثلِ التأثيراتِ المهنية أوِ السياسيةِ أوِ الثقافيةِ أو غيرِها .

في بداية الرواية، من "ملحوظة المؤلف"، يحاولُ فيلد تضييقَ إحدى الفجواتِ الكبيرةِ بين الطرفين ببسطِ الشعور بأنَّ الإسلامَ والمسيحية ديانتانِ تنتميانِ إلى نفس المصدر. ويمكنُ ملاحظةُ ذلك في الخلاف على فكرة أنَّ اسم الله "الله" باللغة العربية يختلفُ عن "الله – God " باللغة الإنجليزية. لذلك، استعملَ في جميع أنحاء الرواية نفسَ كلمةِ "الله" الإنجليزية لدى المسلمين والمسيحيين. ويسوّغُ ذلك في الكلمات الآتيةِ: "سيكونُ من العبث تركُ كلمةِ "الله" (العربية) غيرَ مترجمةٍ إلى "الله" (الإنجليزية) عند الإشارةِ إليها من الشخصياتِ الإسلاميةِ. يعملُ هذا الخيارُ على تأكيد مفارقةٍ مريرةٍ مفادُها أنَّ المسلمين والمسيحيين واليهود – وإنْ تورَّطوا غالبًا في مواجهاتٍ عنيفةٍ – وفقًا لمعتقداتهمُ الخاصةِ يعبدون جميعًا الإلهَ نفسَهُ".

ويمكن تفسيرُ ذلك أنَّه محاولةٌ من المؤلف لإعطاء القارئِ تنبيهاتٍ حول أحد موضوعاتِ الرواية، وهو أنَّ هناك طرقًا مختلفةً لمقاربة الإلهِ نفسِه. إذ يرى فيلد أنَّ الإسلامَ والمسيحيةَ واليهوديةَ دياناتٌ تنحدرُمن نفس الإله، وموسى وعيسى ومحمد جميعُهم أنبياؤه، وكلُّهمْ رسلُ اللهِ. ويظهرُتعريفُ "الله" في قواميس الإنجليزيةِ

الأمريكيةِ والبريطانيةِ على أنَّها ترجمةٌ عربيةٌ لكلمةِ "الله" (الإنجليزية)، ولكنَّها تقتصرُ على العرب (المسيحيين والمسلمين على حد سواء)؛ ويعرّف قاموسُ وبستر الأمريكيُّ "اللهَ في اللغة العربية " على أنَّه "اسمُ اللهِ الإسلاميُّ" وعُرِّفَ أولَ مرةٍ بالإنجليزية في العام 1584، ويعرِّفُ قاموسُ أكسفورد البريطانيُّ اسمَ "الله" باسم اللهِ بين المسلمين. وفي الواقع، يستعملُ المسلمون، وإنْ تعدَّدتْ لغاتُهم، المصطلحَ نفسَه والتهجئةَ العربيةَ في مختلف بلدانِ العالم.

ويستعملُ معاً المسلمون والمسيحيون العربُ اسمَ "الله"، حتى في اللغةُ الآراميةُ التي نطق بها عيسى بنُ مريم نفسُه، فلا فرق بين "الله" (بالإنجليزية) و"الله" (بالعربية) بحسب فيلد. وكلمةُ "الله" الثانية تعني حرفياً "الله" الأولى، ولكن بالنسبة إلى المسلمين، تعني "الله الواحد الأحد"، وهو ما يتعارضُ مع عقيدةِ "التثليث" المسيحيةِ، التي تنصُّ على أنَّ الله ثلاثةٌ من حيث الجوهرُ– الأبُ والابنُ والروحُ القدسُ. لكنَّ فيلد لا يتطرَّقُ إلى هذا التمييزِ بين "الشكل" و"المحتوى".

وعكف فيلد في موضوعُ الرواية على تصوير"الحملة الصليبية الثالثة" (1188–1192). ويثير استعمالُه لهذا الحدثِ التاريخيّ في شكل تخييليٍّ الكثيرَ من الاهتمام. فراحَ يسردُ أحداثَ هذه الفترة الزمنيةِ بطريقة استثنائيةٍ، يوماً بيوم. ويمكن أيضًا تفسيرُ اختياره لهذه الفترة الزمنيةِ من أهمية نقطة التحوُّلِ التاريخيةِ التي أرستِ الحدودَ بين المسلمين والمسيحيين الأوروبيين. فحدثتْ صراعاتٌ واسعةُ النطاقِ عُرِفت بالحروب الصليبية بين الغرب المسيحيّ وعالمِ المسلمين. وقد يشبهُ هذا الصراعُ على نحو معيَّنٍ الصراعَ الذي اندلع مرةً أخرى في أعقاب هجماتِ 11 سبتمبر2001. وقد كتبتْ نسرين يوسف بحثاً يضيءُ هذا التشابهَ بعنوان "سيوف الإيمان لريتشارد وارين فيلد: تناظرٌ تاريخيٌّ بين الحملة الصليبية الثالثة والحادي عشر من أيلول/سبتمبر".[13] ويمكنُنا أن نستنتج الآتيَ من هذه الموازنة: أقِيمتْ تحالفاتٌ أوروبيةٌ ضد العرب والمسلمين في الحروب الصليبية، وحدث الشيءُ نفسُه تقريبًا بعد 11 سبتمبر 2001. ولأنَّ القدسَ كانت دائماً بمنزلة نقطةٍ محوريةٍ للصراع بين المسلمين والغرب، كانتِ الحروبُ الصليبيةُ مركَّزةً في ذلك الاتجاه. ويوضحُ فيلد هذا الكلام بالمقطع أدناه:

صلاحُ الدين مخاطباً ريتشارد: القدسُ لنا بقدر ما هي لكم. إنَّها أكثرُ قدسيةً عندنا من قدسيَّتِها عندكم – إنَّها المكانُ الذي عرجَ منه نبيُّنا في رحلته الليليةِ إلى السماء، والمكانُ الذي يجتمعُ فيه المسلمون يومَ القيامة. لا تتخيَّلْ أنَّه يمكنُنا التخلّي عنه، أو التردُّدُ في هذه النقطةِ. وكانتِ الأرضُ في الأصل لنا. وصلتُم مؤخراً إليها وتولَّيتُم زمامَ الأمور من ضعف المسلمين الذين يعيشون هنا في ذلك الوقت.[14]

وهكذا يربطُ فيلد موضوعاتِ روايته بالحرب الحاليةِ في وصفِه المعتقداتِ الدينيةَ للمسلمين في روايته وأهميةَ فلسطينَ عموماً والقدسِ خصوصاً بالنسبة إلى المسلمين. فالقدسُ موضعُ رحلةِ النبي محمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) الليليةِ، وكانت بمنزلة القِبلةِ الأولى للمسلمين. بالمقابل، يرى الغربُ الآن أنَّ فلسطينَ أحدَ محاور الهجماتِ الإرهابية. وهذا أساسُ ذريعةٍ استعملَها الغربُ لتسويغ أفعالِه ضد فلسطينَ والفلسطينيين. ونظراً لأهمية فلسطينَ قد يساعدُ هذا التفسيرُ الناسَ على فهم الدوافع الكامنةِ وراء أعمالِ بعضِ المنظماتِ الإسلاميةِ التي توصَفُ بأنها "إرهابية" أحيانًا. باختصار، يمكنُ القول إنَّ رواية فيلد، إلى حدٍّ ما، تشيرُ إلى الأسباب الرئيسةِ للصراع بين الغربِ والمسلمين.

فإلى جانب مكةَ والمدينةِ، تعدُّ القدسُ ثالثَ أهمِّ موقعٍ في الإسلام، ويشيرُ فيلد إلى مشاعر المسلمين تجاهَها والتزامِهمُ الثابتِ بالدفاع عنها من الغزوِ. ويناقشُ أهميتَها التاريخية لدى المسيحيين والمسلمين، فضلاً عن مكانتِها عند المسلمين. فهي المدينةُ الوحيدةُ في العالم والمقدَّسةُ في الديانات السماوية الثلاثِ. ويراها المسيحيون أيضًا مقدسة لقربها من مسقط رأسِ السيدِ المسيح. ويمكن مقارنةُ المحاولةِ التي قام بها فيلد بمحاولةٍ قام بها جوثولد إفرايم في مسرحية "ناثان الحكيم" (1779)، والتي تدور أحداثُها في القدس خلال الحملة الصليبية الثالثة. وكان هدفُ ناثان الحكيم سدَّ الفجواتِ بين أتباع الدياناتِ الإلهية الثلاثةِ، ومركّزاً في ذلك على فلسطين. وهكذا، يمكن الإشارةُ إلى أنه تمَّ إحياءُ هذه المسرحيةِ بعد 11 سبتمبر 2001، وعُرِضت 24 مرةً في المسارح الألمانيةِ ومرةً واحدةً في نيويورك بين عامي 2011 و 2013، وإنْ كانَ أداؤُها في

الحقيقة غيرَ قانوني في ذلك الوقتِ.[15] وتضيفُ نسرين يوسف إلى دراستِها لرواية فيلد مناقشة لمسرحية ديفيد ايلدرج "محاربون مقدَّسونَ: رؤيةٌ خياليةٌ للحملة الصليبية وتاريخِ الصراع العنيفِ في الأراضي المقدَّسةِ" (2014) وكيف صورتْ هذه المسرحيةُ تلك الفترة التاريخيةَ في ضوء الحربِ على الإرهاب والحوارِ الجاري حولَ الدولةِ الواحدةِ والدولتين في الصراع العربي – الإسرائيليّ في فلسطينَ المحتلَّةِ.[16]

1– تصويرُ التسامح والتعايشِ السلميّ والتعاملِ مع الأسرى والعبيد

قدَّمتْ فرصٌ نفسَها لاختبار الادّعاءاتِ المثارة ضدَّ المسلمين والعربِ من الوقوف على مبادئ الإسلام وبيّناتِه. فلابدَّ من تأكيد أهميةِ تعرفِ مبادئ ثاني أكبرِ الدياناتِ وأكثرِها انتشارًا وفهمِها، ولا سيما في أمريكا وأوروبا. هذا مع الاعترافِ أيضًا بأنَّ المسلمين والعربَ جيرانُ أوروبا والكثيرُ منهم أعضاءٌ فاعلونَ في المجتمع الغربي. ولا ينبغي تجاهلُ الإسلام كدينٍ أوِ اختزالُه واقعياً ليتمَّ إعادةُ استكشافه بتخييلٍ روائيٍّ وحسب.

فمن الواضح أنَّ رواية "سيوف الإيمان" كُتِبت تحدياً لأطروحةِ صاموئيل هنتنغتون "صدام الحضارات: وإعادة بناء النظام العالمي" الواردةِ في كتابه الصادر عام 1996 تحت هذا العنوانِ،[17] ولِمَا يسمَّى مشروع "الحرب على الإرهاب" والذي نجم عن أحداث أيلول/سبتمبر. ذلك أنَّ الموضوعةَ الرئيسةَ والواضحةَ في الرواية هي "التعايشُ والتسامحُ والحوارُ مع الآخر"، وهذا لا يعني غيابَ موضوعاتِ الحرب المقدَّسةِ والعنفِ والتحدّي والدمارِ؛ بل على الخلاف من ذلك كان حضورُها جلياً وضرورياً لكي تستمدَّ الموضوعةُ الرئيسةُ أهمّيّتَها ومشروعيَّتَها من ضدّها. وعبَّرَ فيلد بصورة جيدةٍ عن هذه الموضوعةِ باستعمالِ قدراتِه الفكريةِ والإبداعيةِ، واستدعى ذلك حقاً النظرَ في إشكاليةٍ معاصرةٍ كبيرةٍ: الصراعُ التاريخيُّ بين الإسلام والغرب وضرورةُ إيجادِ مخرج منه. وقفَ المؤلف على أهمّ الفروقِ بين المسلمين والمسيحيين، محاولاً إزالةَ العقباتِ من طريقٍ مليءٍ بأشواك العداءِ والجهلِ والتعنُّتِ. والجديرُ بالذكر أنَّه في معالجة المشكلةِ يقدّمُ مقترحاتٍ علاجيةً في عددٍ من الحالات، وذلك في عرضه الهجماتِ بين الطرفين ذهابًا وإيابًا وبعضِ ردَّاتِ الفعل الناجمةِ عنهما. وفي محاولة

لتمثيلِ المسلمين والعرب تمثيلاً منصِفاً في جوانبَ مختلفةٍ من الحياة، يقوم بإجراء مقارناتٍ بين العالمينِ الإسلامي والغربي لتبيين طبيعةِ العلاقةِ بين الإسلام والغرب.

ويتوقَّفُ فيلد في كتابه خصوصاً عند أهمية "التسامح والتعايشِ" في الإسلام وأنَّها طريقةٌ رئيسة لإعادة تشكيل التصوُّرِ السلبيّ عنه وتحقيقِ الانسجام بين المسيحيةِ والإسلامِ الديانتينِ الرئيستين في العالم. ويعاينُ بعضَ سماتِ السلوكِ الإسلاميةِ لتوضيح ذلك. ومن طبيعة التسامح والتعايشِ ودعوتِها الناسَ إلى الوجود في مجموعاتٍ بشريةٍ قابلةٍ للاستمرار، ينتقلُ من فكرةٍ إلى أخرى، معبراً عن خصائصِهما المهمَّةِ، بناءً على قبول الآخر والاعترافِ به في الحياة الاجتماعية. لذلك تتطلَّبُ البيئة الاجتماعيةُ والغريزةُ الإنسانيةُ التسامحَ كضرورةٍ للتعايش. ويبذلُ فيلد أيضًا جهدًا لمواجهة تحدياتٍ يواجهُها القارئ الغربيُّ في فهم الإسلام. ولإظهار أنَّ الإسلام دينٌ سلميٌّ، حاولَ استكشافَ العديدِ من جوانب التسامح الإسلاميّ في روايته. وهذا واضحٌ من عرضه للأحداث الواردةِ أدناه والتي تتعارضُ مع ما يدركه القرَّاءُ الغربيون عنِ الإسلام والمسلمين.

ويحاول فيلد في روايته إظهارَ قيمة السلم ومدى تأثيرِها في أخلاق الأمة، مُصرًا على اهتمام الإسلامِ بالسلم وقبولِه وسعيِه لإحلاله. ويردُّ بوجهينِ علميٍّ وعمليٍّ شبهاتٍ أثيرتْ ضد الإسلام والمسلمين، ويحاولُ عزلَها وإبعادَها عن تقدُّمِ الحضارةِ الإنسانية. ويروي ذلك من جهود صلاح الدين في استرجاع القدسِ بالوسائل السلمية خلافاً لإصرار الصليبيين على حيازتِها بالقوة. وجواباً على مقترح صلاحِ الدين السلميّ، يقول المبعوثُ الفرنجي: "القضيةُ المقدسة تعومُ الأعداء لها أحياناً في حمام من دمٍ لكي تنجحَ".[18] ويظهرُ صلاحُ الدين رحيماً في أوقاتِ المعركة، فيعملُ بمبادئ الإسلام ويتجنَّبُ إيذاءَ النساءِ والأطفال. ويقول ريموند، رداً على سؤال بيير، حول قلقِه على زوجته بعد حصارِ صلاح الدين لطبريةَ: " أنا أعرفُ ذلك الرجلَ صلاح الدين. لا خطرَ على زوجتي".[19] وإن دلَّ هذا على شيءٍ فإنما يدلُّ على شهرة صلاح الدين بين أعدائه بسلميَّتِه وكونِه خصماً شريفاً. علاوة على ذلك، حين تقعُ زوجة باليان في قبضة المسلمين، ينصحُ عماد الدين بالإفادة من هذا الوضع للضغطِ على الصليبيين، بيد أنَّ صلاح الدين يرفضُ ويقول: " لا نتصرَّفُ

بتلك الطريقةِ ... مهما تصرَّفوا بطريقةٍ حمقاءَ ومخزيةٍ، ولا نستعملُ زوجة الرجل وأولادَه بتلك الطريقةِ".[20]

وقبيلَ معركة حطين، يتحدَّثُ صلاح الدين إلى جنده قائلاً:

لسنا في حرب مع المسيحيين كلِّهم؛ بل مع قادتهم. فمن معاملة المسيحيين معاملةً رحيمةً، سيكونون راغبين أكثرَ في قبول الشروط وتجنُّبِ إراقةِ الدماء، وقد يكون بإمكاننا إقناعُ القليلِ منهم باعتناق الدين الصحيح. يجب أن نرتقيَ بمبادئنا، ولو قُوبِلنا بهمجيَّةِ قادتِهم وقسوتِهم. هل أنا واضحٌ في كلامي؟".[20]

تُظهرُ كلماتُ صلاح الدين فهماً واقعياً لمفهوم الحربِ والسلمِ في الإسلام، فالرفقُ في التعامل يؤدِّي إلى التفاهم والصلحِ وقد يقنع القليلَ باعتناق الإسلام سلماً لا بالقوة. ومثلُ هذا الفهم يتعارضُ تماماً مع الفهم الغربي السائدِ حول فكرة الجهادِ القائمة على التعدِّي والفرضِ والسلاح. ومع تقدُّمِ الرواية، يوضحُ فيلد أيضاً أهمية السلمِ في الإسلام.

مخاطباً كونراد، يصرّحُ ريتشارد قلب الأسد: "حسبَ معرفتي بهذا الدين الزنديقِ، أي دينِه، وهذا "الإسلام" يحضُّه أنْ يسعى إلى السلم حين يكونُ ذلك ممكناً".

كونراد: "لذا سنعطيه فرصةً ليتَّبعَ إيمانه".[21] ...

عمادُ الدين لصلاح الدين "هل تظنُّه يعرفُ أنَّ القرآن يطلب من المسلمين النظرَ في السلم إذا كانت هناك إمكانية له؟".[22]

وفي مكانٍ آخرَ:

يقولُ الفاضل لصلاح الدين: عليك ألا تتحدَّثَ بالسلم إنْ لم يأتِ الجانبُ الآخر إلى الطاولة بقلبٍ جادٍّ.[23]

تدعو الرواية إلى شيءٍ من الانسجام بين الإسلامِ والغرب؛ لأنَّ تصوُّرَ الغرب للإسلام مبنيٌّ على "حقائقَ" مغلوطةٍ، ويشكل آراءَه الخاصةَ بناء على تصرُّفاتِ أقليةٍ متطرفةٍ، من تحديد ما يُعلّمه الإسلام لأتباعِه وما يمنعُهم عنه، توضحُ الجملُ السابقة تصميمَ الإسلام على إحلال السلام وتبديدِ المبادئ الخاطئة بين الغربيين.

ومن المهمّ اعترافُ الغرب بالإسلام كدين مسالمٍ، وعليه يستعملُ فيلد عن قصد الطابعَ الغربيَّ في الجزء الافتتاحيّ للاقتباس الأولِ لمناقشة أهمية السلامِ في الإسلام.

وبهذه الطريقة، يبذلُ فيلد جهودًا غيرَ عاديةٍ في روايته لتصحيح التصوُّرِ المشوَّه للإسلام بإعادة تقديمه إلى الغرب كدين يقدّمُ السلام على العنف. ويقومُ فيلد بهذا مع الأخذ في الاعتبار أنَّ هذه المبادئَ لم تظهر لأنَّ الدينَ كان غيرَ معروفٍ، ولكن بالأحرى لأنها طُبِّقت فعليًا على نطاق واسعٍ في ذروة القوة الإسلاميةِ. لذلك يتحدى فيلد مبادئَ القراءة الغربيةِ السابقةِ عن الإسلام في روايته، خصوصاً فكرةَ أنَّ الإسلام دينُ عنفٍ ولا يقبل السلام، بتضمينه مُثُلَ التسامحِ والتعايشِ في تصوير مواقفِ المسلمين عند تعاملهم مع القضايا الدينيةِ الحسَّاسة. حتى الأدبُ يجب أن يكون موضوعيًا وذا مصداقية، وألا يخضعَ للأهواء والميولِ الشخصيةِ.

وتشيرُ الشريعةُ الإسلامية والتاريخُ إلى أنَّ لأسرى الحرب ثلاثةَ خياراتٍ: إما اعتناقُ الإسلام، أو دفعُ فديةٍ، أو بيعُهم كعبيدٍ. وهذه الخياراتُ الثلاثة التي غالبًا ما توّجتْ في الإسلام بلطفٍ ملحوظ، جرى تصويرُها في رواية فيلد. ويمكنُ أن تُعزى أهمّيةُ هذه القضية وتأثيرُها في التصوُّراتِ الغربيةِ للمسلمين إلى رسم فيلد لقضيةِ الأسرى. لا شك في أنَّ الوحشيةَ التي صوَّرتْها أجهزة الإعلامِ في الغرب، سواءٌ أكانت حقيقية أم مفتراةً وارتكبتْها بعضُ المنظَّماتِ الإسلاميةِ المزعومة، تجاه بعضِ الرهائن قد صدمتِ المواطنَ الغربيَّ العادي. ويبدو أنَّ هذه الصورةَ لم تعجب فيلد؛ وفي ضوء ذلك، حاول توضيحَ أنَّ "القرآن فرضَ الرحمة على الأسرى العزَّلِ، حتى الأسرى الذين أُسِروا في المعركة وكانوا من أتباع ديانةٍ أقلَّ".[24] وفي سياقٍ آخرَ، يؤكد صلاحُ الدين أنَّ "القرآنَ أمرَ بالرحمة. ومشيئةُ الله التي يجب أن ينفِّذَها البشرُ في الأرض، تدعو إلى الرحمة والرفقِ"، وعليه يتلقَّى رينالد، الذي قام بالاعتداء على القوافلِ والقتلِ والسرقةِ، الدعوةَ الآتيةَ من صلاح الدين: "إذا قبلتَ الإيمانَ الحقيقيَّ، وتُبتَ عن أعمالكَ الشرّيرةِ الرهيبةِ في تحدٍّ لإرادة الله، فسوف تنجو".[25]

ويرسلُ فيلد هنا رسالةً تتعارضُ على نحو مباشرٍ مع نظرة الغربيّينَ إلى الإسلام والتي تتَّضحُ من تصوير رينالد، الذي كان في ذلك الوقتِ أسوأ مجرمٍ بالنسبة إلى المسلمين من الجرائم الفظيعةِ التي ارتكبها ضدَّهم. فقد

عُرض على رينالد أن يتحوَّلَ إلى الإسلام مع عداوته له للبقاء على قيد الحياة. يأمل فيلد بهذه الطريقةِ في إظهار الطبيعةِ غيرِ العدائيةِ للمسلمين. وتتعارضُ حقاً وجهة نظره مع الصورة النمطية بأنَّ المسلمين عدائيون خطرون وأنَّهم قتلةٌ أشرارٌ. وتهدفُ هذه الصورةُ إلى التأثير في نظرة الغربيّين إلى المسلمين، إذ تعرِضُ شاشاتُ التلفزيون، في الغرب اليومَ، الجماعاتِ "الإسلامية" المزعومةَ وهي تعذِّبُ المعتقلين أو تقتلُ الأسرى الغربيين. ويوضحُ فيلد أيضًا وجهًا مختلفًا مسكوتاً عنه للتسامح الإسلامي وهو الرحمةُ مع الأسرى المفديّينَ. ويظهر ذلك واضحاً لما تطلب امرأة من صلاح الدين أنْ يطلق سراحَ زوجِها الأسيرِ، فيجيبُ صلاح الدين أنه لا يعرفُ أين هو؛ وتقول امرأةٌ إنه مع زوجي ضمن المسجونين. ينظرُ صلاح الدين إلى حرَّاسِه ويقول: "حرّروا كلَّ الأزواجِ الأسرى للزوجاتِ الطليقاتِ". وتهتفُ المرأةُ الثانية: "شكراً لك! شكراً لك على رحمتك! ". نظرَ صلاحُ الدين إلى عماد الدين وقال: " في وقتٍ ما يسمحُ الله للغاية العسكريةِ والرحمةِ والسخاءِ بالتدفُّقِ معاً من الأعمال نفسِها ".[26]

وتتبدَّى وجهةُ نظر فيلد في معاملة الأسرى بتقديمه صورةً واقعية للقارئ عن كيفية تعاملِ المسلمين مع خصومِهم وإظهارِ كيفيةِ تعزيزِ الإسلام للتسامح. وهذا يعني أنَّ اختيارَه لهذه الأمثلة يدعم حجَّتَه بأن الإسلام في الأساس دينٌ يقدِّرُ التسامحَ. ويرجعُ ذلك إلى أساس حقيقةِ التشريع القرآنيّ من وقت النزول حتى يومِنا الذي ما زال يثبتُ هذه المبادئَ ولا يخضعُ هذه القضية الحقيقية للتغيير فالنبيُّ محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) أوصى أصحابه ألا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة، بل أنْ يفعلوا الصوابَ ويتصرَّفوا بمقتضى قواعد الدينِ الصحيحةِ.

ويوضح فيلد ضمناً الكلامَ النبويَّ الذي يغطِّي المواقفَ والمتطلَّباتِ الإنسانيةَ المتعلِّقةَ بمعاملة فئاتٍ مختلفةٍ من السجناء. ومن الواضح أنه يبني حجَّتَه على فهم صحيحٍ للمبادئ الإسلاميةِ التي تشيرُ إلى الأسرى، لأنه كان يولي اهتمامًا وثيقًا بها عند كتابة عملِه، ورسمِه الصراعَ الإسلاميَّ مع الصليبيين بتفاصيلَ كثيرةٍ. ويستعملُ بمهارة لغةً مكثفةً تستندُ إلى تفسير المعتقداتِ الإسلاميةِ. ولذلك يقوم بإبلاغ هذه المبادئ الإسلاميةِ من

الأحاديث في روايته. وهكذا، باستعمال الوقائع التاريخيةِ الفعلية للتعامل مع المساجينِ بدلاً منِ استعمال خيالِ المؤلف أوِ الأفكار السابقةِ، يؤكدُ المؤلفُ وجودَ التسامحِ الإسلاميّ واهتمامِه بإنقاذ الأرواحِ البشرية، بغضّ النظر عنِ انتمائهم إلى دياناتٍ أخرى.

ويكتبُ فيلد ويستلهم أفكارَه من الحقيقة التاريخيةِ مع تطور العمل، ويصرُّ على أنَّ اختطافَ الأشخاص لا يتمُّ للحصول على المال (من فدية)، فهو يصفُ كيفيةَ تمجيدِ الإسلام القتالَ وأخلاقَه: بعد الإفراج عنِ الأسرى الذين لم يحصلوا على فدية، قال العادلُ: "يا خادمتي العزيزةَ ، صفقةُ اليوم لا تتعلَّقُ بزيادة خزينتِنا. فهي تسعى إلى الإظهار للعالم الخارجي كيفيةَ إدارةِ المؤمنِ العدلَ والرحمةَ.[27] ويقولُ رشيد: "القرآنُ يحتوي على العديد من التعليماتِ حول كيفية ما يجبُ على السيد أنْ يعاملَ به عبيدَه ... يجبُ أنْ يحصلَ العبيدُ على معاملةٍ عادلةٍ، لا وحشيةٍ أبدًا. إعطاءُ العبيد حرّيَّتَهم أمرٌ مشرّفٌ".[28]

وتسلطُ هذه الأحاديث الضوءَ على مبدأ الرحمةِ الأساسيّ الذي يتعارضُ مع العديد مما يشيعُ عن الإسلام من المبادئ الخاطئة الغربية. بالإضافة إلى ذلك، تقدّمُ أمثلةً واضحةً من الحياة الواقعيةِ لإظهار كيفيةِ معاملةِ الإسلام الآخرين في ذروة الصراع، وبتقديم الأدلة يوضحُ فيلد في تصويره لقضية السبيلِ التي أعطى فيها الإسلامُ المسلمين حقوقَهم الإنسانيةَ الأساسية. هذه إحدى الطرقِ التي يستعملُها الكاتب في محاولة تحقيقِ هدفِه النهائي، وهو تزويدُ الغربيين بتمثيلٍ أكثرَ دقةً للإسلام برفعه مستوى وعيهم ومعرفتِهم به. فمن الرواية، يقدّمُ حجَّتَهُ أنَّ الإسلام يؤسّسُ لمبادئَ توجيهيةٍ أخلاقيةٍ لرعاية العبيد، وذلك يدفعه لمناشدة أتباعه لتحرير عبيدِهم بكونهم بشراً.

ويوضحُ المؤلفُ تمامًا أنَّ الإسلام يمثّلُ سابقةً مثاليةً لكيفية معاملةِ الأفراد الذين يتمتَّعون بمكانةٍ اجتماعيةٍ أقلَّ. ويشيرُ إلى مبدأ إسلاميٍّ مهمٍّ آخرَ، والذي بموجبه لكلِّ فردٍ، بما في ذلك العبيدُ، الحقُّ في ممارسة شعائرِهمُ الدينيةِ بحريَّةٍ. ويؤكّدُ أنَّ الجميع،ومنهمُ العبيدُ، يتمتَّعونَ بحريةِ اتباعِ دينِهمُ المختارِ وأداءِ احتفالاتِهم. يقولُ بيير

لعطيةَ [يتحدَّثُ إلى شخصيةٍ مسيحيةٍ في الأسر]: "... عشتَ حياتَكَ كلَّها في مكانٍ يُقبَلُ فيه أكثرُ من دينٍ. ورأيتَ أوما يُسمَحُ لها باعتناق دينِها بلا خوفٍ من العواقب".[29]

ومن تصوير بعضِ مبادئِ الإسلام، مثلِ قبولِه ومعاملةِ جميع أفرادِه بإنصافٍ ومساواةٍ، يواصلُ فيلد الكتابةَ عن تسامح الدينِ الإسلاميّ. فاختيارُ مقتطفاتٍ من الحقائق التاريخيةِ يمنحُ الروايةَ درجةً عاليةً من المصداقية. فيستعملُ بانتظامٍ المقارناتِ بين عنفِ المسيحيّين الأوروبيين وتسامحِ الإسلام والمسلمين. فمن القيام بذلك، يأمل في إضاءةٍ حقيقةِ أنَّ المسيحيين ارتكبوا أيضًا جرائمَ فظيعةً باسم دينهم، تمامًا كما فعل بعضُ المسلمين باسم دينِهم. ونقرأ في الأسطر الآتيةِ ما يقوله صلاحُ الدين لرجلٍ من الوفد المسيحيّ:

"هل تتذكَّرُ ما فعله أسلافُكَ لما استولَوا على المدينة المقدَّسةِ، قبل أقلَّ من مائةِ عامٍ بقليل؟ كان الشارعُ يتدفَّقُ بنهرٍ من الدماء ومحاربوك الشجعانُ يقطِّعونَ أشلاءَ كلِّ حيٍّ في المدينة، مسلمون ويهودٌ ومسيحيُّو الأرضِ الشرقية! هل عليَّ أنْ أذكِّركم؟ المسلمون احتفظوا بالمدينة المقدَّسةِ لأكثرَ من أربعمائة عامٍ، مع القليل من المشاكلِ الكبيرةِ ...".[30]

وردتْ هذه الحقيقة التاريخيةُ –الروائيةُ في مصادرَ تصفُ تلك الأحداثَ. يحكي مؤرِّخٌ قروسطيٌّ– نقلاً عن أقوال شهودِ عيانٍ– أبياتاً من الشعر تتحدَّثُ بصراحةٍ وقسوةٍ عنِ المآثم والفظائعِ التي اقترفها الصليبيون في القدس العربيةِ حين احتلوها في 15 تموز/يوليو 1099:

الإفرنجُ يجُوسون المدينة. شاهري السيوفِ.

لا يُشفِقونَ على أحد، ولا على الذين يرتَجُونَ الرحمة ...

سقط شعبُ الكفارِ تحت ضرباتِهم مثلما

تسقط جوزاتُ البلوطِ المهترئةُ من شجرة البلوطِ حين

يهزُّونَ أغصانَها.[31]

وتصفُ روايةٌ لأحد الفرنجةِ ذبحَ الصليبيين سكانَ القدسِ عام 1099 بهذا الشكلِ:

الكونت ريموند ورجالُه، الذين كانوا يهاجمون الجدارَ على الجانبِ الآخرِ... شاهدوا المسلمين يقفزون عنِ الجدارِ أمامَهم. وعلى الفور، اندفعوا مبتهجينَ إلى المدينة لملاحقةِ الأعداء الأشرارِ وقتلِهم، كما كان رفاقُهم يفعلون. ولجأ بعضُ المسلمين والعربُ والأثيوبيون إلى برجِ داودَ، وهربَ آخرون إلى معابد الربِّ ومعابدِ سليمانَ. وجرتْ معركةٌ كبيرةٌ في ساحات المعابدِ وأروقتِها، إذ كانوا عاجزين عنِ الفرار من مقاتلينا. وهربَ الكثيرون إلى سقف هيكلِ سليمانَ وأصابتْهمُ السهامُ ليسقطوا على الأرض أمواتاً. قُتل في هذا المعبدِ نحوُ عشرةِ آلافٍ. وفي الحقيقة، لو كنتم هناك لرأيتم أقدامَنا مصبوغة حتى كواحلِنا بدماء القتلى. ولكن ماذا سأروي بعد؟ لا أحدَ منهم ظل حياً؛ ولم ينجُ النساءُ ولا الأطفالُ.[32]

ويتَّخذُ فيلد مواقفَ وصفيةً بناءً على إشاراتٍ تاريخيةٍ. باستعمال محادثةٍ توحي ببعض العداوةِ بين المسلمين والمسيحيّينَ الغربيّينَ، ويبدو أنه أقلُّ اهتمامًا بانتقاد الغربِ هذا العملَ الأدبيَّ منه في تقديم الإسلام بشكلٍ إيجابيٍّ وأسبابِ احتقارِ الغربيّينَ له. ويعتمدُ على الحقائق التاريخيةِ، مدَّعياً أنه بعد الانتصارِ في الحملة الصليبيةِ الأولى عام 1096 م، قام الصليبيُّونَ الغربيُّونَ بذبح جميع المقدسيّينَ بوحشية. وعلى غرار مذبحةِ الحملةِ الصليبية الأولى التي قُتِلَ فيها جميعُ الأسرى المسلمين العزَّلِ أمام بوابة عكا، ارتكبَ ريتشارد قلب الأسد نفسَ الفظائع في الحملة الصليبيةِ الثالثةِ. ويؤكِّدُ التاريخُ الفعلَ الصليبيَّ المسيحيَّ الأوروبيَّ الفظيعَ في الحروب ضد المثلِ الإسلامية للحرب والذي يتناقضُ بشدةٍ مع سلوك صلاحِ الدين الأيوبي.

فمن مراقبة فيلد للمواقف الغربيةِ تجاه الإسلام والأفعالِ التي شوَّهتْ تصوُّراتِ المسلمين في العالم العربي بهذه الطريقة، راحَ يتعامل بشكلٍ نقديٍّ مع غالبية الأعمال الأدبيةِ التي تصوِّرُ الإسلامَ على أنه دينٌ يخلو من التسامح والتعايشِ السلمي. ويناقشُ بعضَ مبادئ الصراعِ الإسلامي – الغربيِّ المسلَّحِ، مستشهداً باحتلال القدسِ كمثالٍ ممتازٍ لكيفية إدارة الصراعِ بأقلِّ قدرٍ من الخسائر البشريةِ. إذ يصرُّ فيلد على أنَّ التزامَ المسلمين الحقيقيَّ بتعاليم دينهم أدَّى إلى طيبِ معاملتِهمُ الأخلاقيةِ. وأثبتَ فيلد أنَّ الرواية قادرةٌ على الولوج إلى عالم

الوقائع التاريخيةِ، وربطِ الخاصِّ بالعامِّ، والفكرةِ المثاليةِ بالحياة الواقعيةِ، وتخييلِ الوقائعِ التاريخيةِ بما يفيد الواقعَ العيانيَّ الراهنَ.

2- تصويرُ شخصية العربيِّ والمسلمِ :

تعود علاقة العربِ والغربِ إلى ما قبل ظهور الإسلام منذ أيام الأغريقِ والرومانِ الغربيّينَ والشرقيّينَ. إذِ اعتادَ الغربُ على نداء العرب بأسماءٍ مختلفةٍ كانت تمييزيةً عرقياً. واستمرتْ بعضُ هذه الأسماءِ بعد ظهور الإسلام لتشملَ جميعَ المسلمين عربًا كانوا أو غيرَ عربٍ. ويمكن الإشارةُ إلى أبرزهذه الأسماءِ التي ارتبطتْ بالعرب والمسلمينِ أو عُدَّتْ مرادفاتٍ لكلمة المسلمين أوِ العربِ في العالم الغربي. فمن المعروف أنَّ كلمةَ "إسلام" في اللغة العربيةِ تعني الخضوعَ أوِالاستسلامَ لمشيئة الله؛ و"المسلمُ" مَنْ آمنَ بالإسلام أي خضعَ أوِ استسلمَ لمشيئةِ الله. ولم يتحدَّثِ الكتَّابُ المسيحيُّونَ في العصور الوسطى عن كلمتي "إسلامٍ" أو "مسلمين" بتلك الصفةِ، إذ كانت هذه كلماتٍ غيرَ معروفةٍ (مع استثناءاتٍ قليلة) في اللغات الغربيةِ قبل القرنِ السادسَ عشرَ، بدلاً من ذلك، أشار الكتّاب المسيحيون إلى المسلمين باستعمال مصطلحاتٍ عرقيةٍ مثلِ العربِ، والأتراكِ، والمغاربةِ، والساراسينَ، والتتارِ(Arabs, Turks, Moors, Saracens, Tartars) وذلك للتقليل من شأنهم وتقليصِ دورِهم وحصرِه في نطاق محليٍّ أو عشائريٍّ، وذلك تبعاً للناس الذين صادفُوهم. ويجري حالياً وصفُ القائدِ المسلمِ صلاح الدين بأنه "كردي" لاختزال حضورِه وتأثيرِه في الكتاباتِ التاريخيةِ والسياسيةِ والإعلاميةِ ولاعتباراتٍ سياسيةٍ أمريكيةٍ راهنةٍ أخرى تحتاج إلى معالجةٍ مستقلةٍ. لكنَّ لعبةَ الأسماءِ والصفاتِ العرقيةِ أوِالفئويةِ مارسها المسلمون أيضاً، فوصفُوا المسيحيّين الغربيّين بالفرنجة، والرومانِ، والسلافيّينَ، وحين الإشارة إلى الدين استعملوا عباراتٍ مثلِ وثنيٍّ، وكافرٍ، وهي عباراتٌ عامةٌ تعني غيرَ مؤمنٍ لكن أيضاً تعوزُها الدقةُ.[33] ودُعُوا هم في الممارسة الشائعةِ بالمحمديين أي أتباعِ شريعةِ محمد لكونهم على اتصال مباشرٍ بالمسلمين ودعى المسلمون المسيحيّين بالنصارى نسبةً إلى بلدة الناصرة في فلسطينَ والتي ولد

فيها عيسى بنُ مريمَ. [34] وتحدَّدتْ هذه الكلماتُ الناجمةُ عنِ الصداماتِ الأولى بين المسلمين والغربيين، وتأكَّدتْ في مناسباتٍ، وعُدِّلتْ في مناسباتٍ أخرى، وحسب الوقائعِ اللاحقةِ بين الطرفين.

ومن الشائع أنَّ كلمة ساراسين استعملها الرومان للإشارة إلى سكان الصحراءِ في منطقة البتراءِ ثم أصبحتْ تُطلَقُ على العرب، وفي العصور الوسطى وحروبِها الصليبيةِ توسَّعتِ الكلمةُ لتشملَ كلَّ الذين يدينون بالإسلام. وانتقلَ الاسمُ إلى اللغاتِ اللاتينيةِ وباقي اللغاتِ الأوروبيةِ والتسميةُ بالإنجليزيةِ هيSaracen. ويردُّ البعضُ أصلَها إلى الكلمة السريانية ܫܪܩܝܐ مشرقا/ مشرقو أو المشرق ومن ثمَّ إلى العربية (شرقيين) لوصف المشارقةِ عموماً. المصطلحُ اللاتينيُّ Saraceni له معنى أصليٌّ غيرُ معروفٍ. وهناك ادِّعاءاتٌ بأنه مشتقٌّ من الأصل الثلاثي الساميّ "شرق" أو "شركة". وأصلٌ ساميٌّ آخرُ محتملٌ هو "سرق"، وبشكل أكثرَ تحديداً من الاسم "سارق" أو الجمعِ "سارقين".[35] ووردتِ اللفظة عند المؤرِّخينَ الرومانِ مثلِ إميانوس وغيرِه.[36] وفي الواقع، حملَ هذا الاسمُ، وبقيةُ الأسماءِ، دلالاتٍ سلبيةً مازالتْ بحاجةٍ إلى دراسة تاريخيةٍ لغويةٍ ومصطلحيةٍ مفصَّلةٍ ومستقلةٍ.

ويستعملُ فيلد في الرواية كلمةَ" الساراسين" وهي أحدُ الأسماءِ التي استعملَها الغربيون بصورةٍ متكرِّرةٍ، لا سيما فترةِ الحروبِ الصليبية. يصيحُ أحدُ فرسانِ الفرنجة: " ألقى الساراسينُ (المسلمون) الحملانَ الميتةَ في الجداول! طعمُ الموتِ موجودٌ في الماء! [37] وتخاطبُ أيضًا جوان أخاها ريتشارد رداً على عرض الزواجِ بأخ السلطان: "إنَّه (مسلم) ساراسين، ساراسين، ساراسين!، أو تركي!، أي كافر!![38]

لكنَّ فيلد يحثُّ الناسَ على تجنُّبِ استعمال مثلِ هذا الاسم، كما في الاقتباس الآتي، في جهودهم لإزالة جميعِ الحواجزِ التي تحولُ دون التعايش السلميّ. ففي حديثٍ بين بيير ورشيد، يقولُ الأول للثاني:

"ما رأيُكَ أنْ نتَّفقَ على أنه إنْ لم تنادِني ب" إفرنجي "، فأنا لا أسمّيكَ"ساراسين؟""

"أنا فرنسيٌّ. وأنت عربيٌّ." إفرنجي " و"ساراسين" مجرَّدُ تسمياتٍ للمرء الجاهل".

"أليس هذا صحيحاً".

"أنت تعرفُ أنه صحيحٌ".[39]

ويوضحُ فيلد طريقةً يجري بها تصويرُ المسلمين والعرب في الغرب بمعرفةٍ كبيرةٍ. فمن ذكر هذه التسمياتِ للمسلمين، تنعكسُ دلالةُ السطورِ السابقةِ في التمثيل الدقيقِ لما هو موجودٌ بالفعل في الأدب الغربيّ "الأوروبي والأمريكي" فيما يتعلَّقُ بالمسلمين والعرب. فالحاجةُ إلى تجنُّبِ أيّ شيءٍ يوسّعُ الفجوةَ المعرفيةَ بين الغرب والدولِ الإسلامية والعربية والتوقُّفُ عنِ استعمال مثلِ هذه العلاماتِ الهدَّامةِ هي أيضًا قضيةٌ حيويةٌ مثارةٌ. فإنَّه يؤكّدُ أيضًا استعمالَ اسمِ "فرنجة" عند الإشارة إلى الأوروبيين لما يوردُ حديثَ الشخصياتِ المسلمةِ. واعتمادًا على طبيعة تفاعلاتِ هؤلاء المسيحيّين الأوروبيّين مع المسلمين، يخصّصُ لهم فيلد تسمياتٍ مختلفةً في الرواية. وفقًا لـ برنارد لويس، الذي يناقشُ من الناحية التاريخيةِ موضحاً هذه الفكرة أنَّ التغيُّراتِ في الفهم الأوروبي للإسلام لها تغيُّراتٌ في الفهم الإسلاميّ لأوروبا وإنْ أتتْ هذه التغيُّراتُ بالتدريج ومتأخرةً كثيراً: "حدثَ تغيُّرٌ ما في الموقف تجاهَ أوروبا، لا سيما الشعوبِ الغربيةِ منها خصوصاً. وحلَّ الأتراكُ محلَّ العرب حكاماً للإسلام، وحلَّ "الفرنجة" محلَّ البيزنطيين بكونهم المنافسَ المسيحيَّ الرئيسَ".[40]

أما مصطلحُ "تركي" فهو لقبٌ آخرُ للمسلمين قدَّمَهُ المؤلِّفُ، ولو بصورةٍ محدودة. و يُلاحَظ، في هذا الصدد، أنَّ "كلمة "تركي" استُعمِلتْ في إنجلترا في أواخر القرن السادسَ عشرَ مرادفةً لكلمة "هدف" في الرماية وأنَّ عبارة" تحوَّلْ إلى تركي" 'نشأت أيضًا في هذا الوقتِ.[41] ومن محاولته تقديمَ صورةٍ للمسلمين يتَّضحُ من هذه العناوينِ أنَّ وظيفتَها العرقيةَ إبرازُ الأهمية الثقافيةِ للأشخاصِ الذين أرادوا تمييزَ أنفسهم عنِ العرب الرحَّلِ سواء كانوا من الصليبيين أو الرومانِ، وبحسب ما ورد في الرواية، حين قالت جوان عن رفضها الزواجَ من شقيق صلاحِ الدين العادلِ: "إنه ساراسين، ساراسين، ساراسين! أيضا تركي! "كافر!".

ويشير فيلد أيضًا إلى هذه المصطلحاتِ الغربيةِ للعرب والمسلمين في هذا القولِ. وهكذا يتَّضحُ أنَّ الإشارةَ بمصطلحِ "تركي" إلى جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم. على سبيل المثال، يحاولُ فيليب ماسنجر في مسرحيَّتِه "المنشق، أو سيد من فينيسيا" (1630) إبرازَ الفروق بين "الأتراكِ" والمسيحيةِ بدلاً من الإسلام

والمسيحيةِ، فمصطلحُ "تركي" يشيرُ في الأصل إلى الإسلام. ولذلك عبارةُ "التحول إلى الأتراك" تشير إلى اعتناق الإسلام. وبذلك، تجري الإشارةُ إلى جميع المسلمين باسم "الأتراك" في الأعمال الأدبيةِ الإنجليزيةِ، وهو ما يدعمه التصريحُ القائل بأنَّ "الترك كانوا الغرباءَ المميَّزين للرومانسية الأوروبيةِ منذ الحروبِ الصليبية ... ومصطلحُ "الأتراك" "كان مستعملاً على نطاق واسعٍ في أنحاء العالم الإسلامي، من الهند إلى المغرب ومنها إلى ما وراءها".[42]

ونلاحظُ في الرواية أنَّ كلمة "كافر" مستعملةٌ من كلِّ طرفٍ في وصفه للطرف الآخِر، فهي تهمةٌ أو شتيمةٌ متبادلةٌ بين المسيحيين الغربيين والمسلمين. نقرأ على سبيل المثال:

صلاحُ الدين: "سنحرِّرُهذه الأرض من سيطرة الكفارِ".[43]

وفي مناسبة أخرى:

ريتشارد: "... أنا أقودُ جيوشَ الله ضدَّ الكفار الذين يسيطرون على أورشليم".[44]

Infidel كلمةٌ إنجليزية تعني "كافر" بالعربية، وتشيرُ إلى شخصٍ لا يؤمن بمعتقدٍ دينيٍّ معيَّنٍ للطرف الآخر ويرفضُه. وبحسب هذا الفهم للتسمية يشير المؤلفُ إلى حقيقة تاريخيةٍ صحيحةٍ إلى حدٍّ كبيرٍ، وهي حقيقةُ الرواية التي يعكسُها العنوان، وتعكسُها أوصافُ الفرسانِ المسلمين والمسيحيّين الغربيّين لأنفسهم أنهم يحملون سيوفَ الدينِ أوِ الإيمانِ الذي يقاتلون من أجله. فمن إضاءة الاختلافاتِ بين المسلمين والمسيحيّين، عبر حواراتِ شخصياتٍ روائيةٍ، يذكرُ فيلد هذه التسميةَ كي يظهر أساسَ الاتِّهاماتِ المتبادلةَ. نرى ذلك من الحوار بين شخصيةِ التاجر المسلمِ رشيد والفارسِ المسيحيِّ الأسير بيير:

رشيد: أعرفُ عن إيمانك أكثرَ مما تدركُ أني أعرفُ ... الإسلام يُبنَى على إيمان كبيرٍبالمسيحية، تمامًا كما بُنيتِ المسيحيةُ على إيمانٍ كبيرٍباليهودية ... يقول إنجيلُ يوحنا المسيحيِّ على لسان النبيِّ عيسى: سأطلبُ من الأب، وسيعطيك معيناً آخرَ ليكون معك دائماً – إنه روحُ الحقِّ. هل يصعبُ تصديقُ أنَّ النبيَّ محمداً هو ذلك المعيَّنُ الذي تنبَّأتْ به الكتبُ المسيحيةُ؟

بيير: ... لكنَّ الإسلامَ ينفي أنَّ مخلِّصنا يسوعُ المسيحُ وهو ابنُ اللهِ.

رشيد: أفهمُ هذا. وستكونُ هذه أكبرَ عقبةٍ أمامك لأخذِ خطوةٍ إلى الأمام نحو الإيمانِ الحقيقيّ. ترى أنَّه وإنْ كانتِ اليهوديةُ والمسيحيةُ ديانتينِ عظيمتينِ تهديان البشرَ نحو الصلة الصحيحةِ بالله ... فقد ضلَّ أتباعُهما السبيلَ. أُعطِيَ اليهودُ الوصايا العشرَ لكنَّهم لم يعملوا بها ... أرسل اللهُ النبيَّ عيسى ليصحِّحَ هذه الأخطاءَ، لكنَّ أتباعَه راحوا يؤلِّهونه، منتهكين أحكامَهم ضدَّ الشركِ. يحفظ الإسلامُ حقيقةَ هذه الأديانِ السابقة العظيمةِ ويصحِّحُ أخطاءَها. اعتناقُ الإسلام لن يبعدَك عنِ الله، بل سيقرِّبُك منه.

بيير: ... لكنَّ الله الذي أعبدُه لم يرسلْ فقط ابنَه يسوعَ ليصحِّحَ أخطاءَ اليهود. أرسلَ اللهُ يسوعَ ليموتَ من أجل آثام البشريةِّ كلِّها ... يسوعُ ينتظرُ عند اللهِ ليحاكمَ حياتي على هذه الأرضِ. وسيسمحُ إيماني لي بالعيش معه إلى الأبد في السماءِ، إنَّ رفضَ تضحيتِه سيدينُني في العالم الآخرِ.

رشيد: أدركُ أن هذا اعتقادٌ خاطئٌ فُرض على المسيحيين. عليك أن تنظرَ إلى البؤس الذي جلبَه ذلك إلى العالم.[45]

ويوضِّحُ فيلد وجهاً من وجوهِ الاختلافِ بين الديانتين برفض المسلمين لألوهيَّةِ المسيح ورفضِ المسيحيّين لنبوَّته بكونه بشراً وحسب، وأنَّ قبول أيّ طرفٍ لما يرفضُه الآخرُ يعدُّ تجديفاً أو كفراً. بيد أنَّ فيلد يوردُ هذا التباينَ بحوارٍ منضبطٍ وصريحٍ من جانب كلّ طرفٍ يحاولُ إقناعَ الطرفِ الآخر. ويمكنُ أن يعدَّ هذا الحوارُ بين هاتين الشخصيتينِ المميَّزيتينِ من أهمّ جوانبِ السرد في الرواية لكونه ينطوي على تضميناتٍ مهمَّةٍ ويدورُ في أشدِّ اللحظاتِ صداميةً بين ممثِّلي الشرق والغرب، فالشخصيةُ الأولى تمثِّلُ وجهةَ نظرٍ إسلاميةً عموماً لا لبسَ فيها، والثاني فارسٌ مسيحيٌّ تمثِّلُ وجهةُ نظره أيضاً الغربَ المسيحيَّ عموماً. ولكننا نخلصُ إلى استنتاجٍ مفادُه أهمِّيَّةُ الحوار وضرورتُه ووجوبُ سماعِ الرأي الآخرِ في أزمنة الشدّةِ. وكونُ رشيد تاجراً ومحاوراً إسلامياً في الرواية يتضمَّنُ ذلك معنًى رمزياً تاريخياً يفيد بالدور المهمّ الذي اضطلعَ به التجارُ في نشر الإسلام في بلدانٍ

كثيرةِ السكان وشديدةِ الالتزامِ به، والذي يقفُ في مواجهة الادِّعاء القائلِ بأنَّ الإسلامَ دينٌ انتشر بحدِّ السيف، والفكرةِ السائدةِ في الحياة والأدبِ بأنَّ المسلمين قوم جاهلٌ ومسلَّحٌ. والجديرُ بالذكر، أنَّ رشيد يساعدُ في إطلاق سراحِ بيير والحوارُ ومجرياتُ الأحداثِ تعزِّزُ الحوارَ والتفاهمَ بينهما. ويظهِرُ فيلد من جهة ثانية الأسبابَ الأوليةَ التي دعتْ كلَّ طرفٍ إلى تسمية الطرفِ الآخر بالكافر. وبالأمثلةِ يثبتُ في الرواية صعوبةَ قبول كلِّ طرفٍ لمعتقد الآخر. ونذكر بعضَها: قال رينالد: "إيماني هو الحقيقيُّ، ويسوعُ المسيحُ هو المسيحُ، ومحمدٌ كان زنديقًاً ".[46] ويقولُ رجلُ دينٍ لريتشارد: "اضربْ صلاحَ الدين بالقوة التي يتمتَّعُ بها دينُنا! وانتقمْ من الفظائع التي يرتكبُها أتباعُ نبيٍّ كاذبٍ. وضعْ قوتَكَ في خدمة اللهِ والمسيحِ".[47] ويمكن العثورُعلى أمثلة في أماكنَ أخرى تثبتُ هذه الفكرة. ومما يجدرُ ذكرُه، أنَّ تسمية "الساراسين" استُبدِلتْ بكلماتٍ مثل "عبدة محمد" أوِ "المحمديين" أوِ "المحمدية" لما اتجهَ الغربُ نحو احتسابِ الإسلام ديناً. وتفيد هذه الألقابُ في تبيُّنِ اختلافِ الرؤى لاختلاف المواقعِ والأزمنةِ. وكتب إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" (1978) موضحاً آثارَ هذه الألقاب: "فلما كان المسيحُ أساسَ الدين المسيحيِّ، افترض هؤلاء – وكانوا مخطئين كلَّ الخطأ – أنَّ محمداً يمثِّلُ للإسلام ما يمثِّلُه المسيحُ للمسيحية، ومن هنا أطلقوا على الإسلام التسميةَ الجدليةَ أي "المحمدية" وألصقوا بمحمدٍ – صلى الله عليه وسلم – صفةَ "الدجال" بصورة تلقائيةٍ".[48] وفي محاولةٍ لمواجهةِ تحدِّياتٍ تعترض القارئ الغربيَّ في تطوير فهمٍ صحيحٍ للإسلام والمسلمين، يبذل فيلد أيضًا جهدًا لسدِّ هذه الفجوة في الاختلافاتِ والأفكارِ المتعارضة. يقوم بذلك من تقديم صورةٍ تصحيحيةٍ لهذه المعتقداتِ بدلاً من تلك المشوَّهةِ: يقول رشيد مع ابتسامة لطيفةٍ مخاطباً بيير: "كما أنَّ المسيحية تبني على الإيمان العظيمِ لليهودية ، كذلك يبني الإسلامُ على الإيمان العظيمِ للمسيحية".[49]

و يبرهنُ هذا على محاولة فيلد توضيحَ هذا الخطأ من مساواة الإسلام بالمسيحية واليهوديةِ، وهما ديانتانِ متتاليتان يكمل كلٌّ منهما ما سبقه. واقترحَ كذلك أنَّهم إذا أتَوا جميعًا من نفس المصدرِ؛ فإنَّ كلَّ هذه الأديانِ صحيحةٌ. وثمة إصرارٌ على أنَّ المسلمين لا يرفضون المسيحيةَ أوِ اليهوديةَ بل يؤمنون بهما، وإن كان ذلك

بطرق مختلفةٍ، وهناك بعضُ أوجهِ التشابهِ ولكن من دون هرطقاتٍ. ومن الملاحظ أنَّ فيلد كثيرًا ما يوظِّفُ شخصية مسلمةً عند مناقشة الإسلام كإشارةٍ إلى الدور الحاسمِ الذي يضطلعُ به المسلمون العاديون في توصيل أفكار الإسلام باستعمال لغة توضيحيةٍ صادرةٍ من شخصية مؤمنةٍ به وحسب ومن دون أن تمثِّلَ مرجعيةً دينيةً. وعادة ما تكون هذه المبادئُ التي تنقلها الرواية متَّسقةً عموماً مع العقيدة الإسلاميةِ. فمن المبادئ الأساسية للإسلام قبولُ جميع الأنبياءِ والرسلِ السابقين للنبيّ محمدٍ والواردة أسماؤُهم في القرآن الكريم. وعليه من الضروري أنْ يلتزمَ المسلمون بالتوجيهاتِ الإلهية وأن يؤمنوا بيسوعَ المسيحِ وموسى، وأن يحترموا الأديانَ الأخرى أيضًا، لذلك يستمرُّ فيلد في رسم هذه الصورةِ للمسلمين والمسيحيين على حدٍّ سواءٍ.

3. المتعصِّبون (غلاةُ التطرف والإرهاب)

من المعروف أنَّ الإسلام أصبحَ كبشَ فداءٍ للكثيرين في الغرب؛ إذ يُنظر إليه بشكلٍ أو بآخرَ بكونه ديناً خطيراً بسبب تعميم سلوكِ فئةٍ من المتطرفين، وعلى أنه دافعٌ رئيسٌ لأعمالٍ إرهابيةٍ في بلدان غربيةٍ، ونُشِرت هذه الصورة المريبةُ خصوصاً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول 2001. أيْ غدا مصدراً رئيساً للخوف بالنسبة إلى الكثيرين في الغرب. ويقدِّمُ فيلد واحدةً من أحدث التصوُّراتِ الأدبيةِ الذهنيةِ عن المسلمين، وهي فكرة التعصُّبِ والتطرفِ والإرهابِ والتي ساعدتْ في تطورِ ظاهرةِ "الإسلام السياسي" اليوم، وذلك عبر رسمِه لتصوُّرِ الغربيين للمسلمين والعربِ. ويمكنُ ربطُ ذلك بتقويم الغربيين الخاطئِ للإسلام بناءً على تصرُّفاتِ جماعة صغيرة نسبيًا من المسلمين، وذلك أدى إلى بروز جملةٍ متنوّعةٍ من المبادئ الخاطئة عنِ المسلمين وزيادةِ العداء بين الغربِ والعربِ والمسلمينِ. وقد يكون هذا الفهمُ الخاطئ نشأ منِ ازدراء حقيقةِ أنَّ التطرفَ والعنفَ يمكن أن يتعايشا معاً لما ينتهكُ الأفرادُ والجماعاتُ والدولُ أحيانًا أعرافَ المجتمع وتقاليدَه. وعند هذه النقطة، يجسدُ فيلد انتشارَ الأساطير بتقديم حالةٍ أو موقفٍ عنِ التعصُّبِ أوِ الغلوّ الديني وإظهارِأنَّ الإسلامَ والمسلمينَ الحقيقيّينِ – الذين يمتثلون للتعاليم القرآنية – يقاومون هذه الظاهرةَ المحرَّمةَ. لننظرْ في المقطع الآتي المأخوذِ من جدال بين مسلمٍ ومسيحيٍّ غربيٍّ:

يقول رشيد لبيير: "هربَ قبل أنْ يتحدَّاه رجالُ السلطانِ. سمعتُ أنه يتَّجهُ شمالاً لينضمَّ إلى الرجل العجوزِ في الجبل.

"سنان؟"

"نعم، الشيعةُ في وسط أراضي صلاحِ الدين السوريةِ تركَهم صلاحُ الدين نفسُه بلا مضايقةٍ أظنَّ أنَّ جماعتَكم لسببٍ ما يطلقون عليهم اسمَ "الحشاشين".[50]

أومأ بيير برأسه: "لأنهم يدخِّنون الحشيشَ قبل أن يقوموا بأيّ مهمَّةٍ قاتلةٍ يكلِّفُهم بها سنان".

"خرافة. قد يستعملُ البعضُ الحشيشَ، لكنَّ البعضَ الآخر مجرَّدُ متعصِّبينَ".[51]

في هذا الحوار، يقومُ فيلد بمحاولةٍ لتحسينِ فهمِ المسلمين باستعمال مصطلحِ "حشاشين، وارتباطِه بفكرة القتل، لأسبابٍ سياسية خصوصاً، ورمز للتعصب والغلوّ الديني. وتوضيحِ أنَّ الإسلام لا يعزّزُ العنفَ، ويمنعُ استعمالَه ضد الأبرياء والعزَّلِ، ويحظرُ إجبارَ الناس على الإيمان. وإنْ وُجدت فئةٌ ماضياً أو حاضراً تقوم بتلك الأفعالِ فإنَّها لا تنسجم مع تعاليم الإسلامِ السمحاءِ. ولا ينكرُ فيلد وجودَ تلك الجماعةِ لكنَّه يلمح إلى أنها قليلةٌ نسبياً وأنَّ أغلبيةَ المسلمين يعارضونها. ويقوم المؤلفُ على لسان شخصيةٍ ليستْ أقلَّ من صلاح الدين بتبيانِ ذلك: يردُّ صلاحُ الدين على باليان الذي ذكر له أنَّ الصليبيين مستعدُّونَ لأنْ يقتلوا أولادهم لئلا يقعوا أسرى في يده: "لا أستطيعُ فعلَ شيءٍ تجاه أناسك الذين ينتحرونَ وسيقتلون أولادَهم فإنَّ الله سيتكفَّلُ بمحاسبتهم في الحياة الآخرةِ على هذه الخطايا. وسأعيدُ هذه القلعة إلينا بالحديد والنارِ. ولن تستطيعَ إيقافي.[52]

ربما تذكّرنا هذه الأقوالُ بفكرة سائدةٍ عن المسلمين أنهم ينتحرون ويقتلون أنفسَهم والآخرين الأبرياء بعملياتٍ انتحاريةٍ. بيد أنَّ فيلد يبدي دعمَه للمسلمين هنا بأنهم يرفضون ذلك بصوتِ شخصيةٍ إسلامية بارزةٍ، والرفضُ يأتي من ملايينِ المسلمين، الذين يسعَون إلى التعايش سلمياً مع بقيَّةِ العالم، لا من فئاتٍ قليلةٍ تعملُ خلاف ذلك. وهذا ما نقرؤُه في الرواية، وأنَّ القوة تستعمَلُ في المواجهات العسكرية لا في النقاش وتبادلِ

الرأي. ونلاحظ في الروايةِ هذا الحوارَ: يقولُ صلاح الدين لعمادِ الدين: "سنان أيضًا يحاولُ قتلي منذ سنواتٍ ... واتفقْنا أن يدعَ الواحدُ منا الآخرَ وشأنَه."[53] وفي مكانٍ آخرَ، يقول بيير لعاصمٍ [أحد الحشاشين]: "عملُك". ما من دين يقبلُكَ به – لا المسيحيةُ ولا الإسلامُ – السنّيُّ أوِ الشيعيُّ "[54]. ويختتمُ بييرالصراعَ قائلا لرشيد: "رأينا المستقبلَ معاً أنت وأنا، وطريقَ التعامل بيننا – عشْنا المستقبل. المتعصّبون من ديانتَينا يخطئون، حروبُهمُ التي لا تنتهي ليست طريقًا للخلاص أو إلى مشيئة الله". هزَّ رشيدٌ رأسه موافقاً: "الأمرُ يسيرٌعلى ما أظنُّ. فقط... علينا مقاومةُ المتعصّبينَ. أليس هذا ما تعلَّمْناه."[55]

يرسمُ فيلد على هذا المنوالِ فكرة أنَّ الإرهابَ ظاهرة عالميةٌ لا خاصَّةٌ ببلدٍ أو مجتمعٍ أو دينٍ بعينه. ويلمحُ في روايته أيضًا إلى نقطة ثانيةٍ مفادُها: إنَّ المسلمين أنفسَهم تأثَّروا بالتعصُّب والإرهابِ، كما هو مذكور آنفاً، وأنَّ الحقيقيين منهم يعارضون ذلك. هذا ليس فتراءً من فيلد؛ إنها حقيقةٌ تاريخية. فمن هذا التبادل، بين شخصيتينِ إسلاميةٍ وغربيةٍ، يشير فيلد أيضًا إلى أنَّ المسلمين والمسيحيين يجبُ أن يتقاسموا المسؤوليةَ في شنِّ حرب على المتطرفين. ومن الثابت تاريخياً أنَّ صلاح الدين حاربَهم، ومنهمُ الحشاشون القتلةُ، مدةً طويلة من الزمن.

وبذل فيلد جهدًا للتمييز بين المسلمين المعتدلين التقليديّينَ والمتطرّفين قدر الإمكان، فقام بمحاولةٍ ضدَّ هذه الصور النمطيةِ غيرِ الصحيحةِ والمفهومةِ السائدة بأنَّ المسلمين والعربَ قومٌ متعصبون، موضحًا أنه لا ينبغي تحميلُهم جميعًا المسؤولية عن أفعال زمرةٍ معينة. فكان عليه أن يأخذ في الحسبان الأحكامَ الجائرةَ على جميع المسلمين بأنهم متطرّفون في العديد من الكتاباتِ، ومنها الأدبية خصوصاً، لأن حياة الفريقين يجبُ أن تكون مستقرَّةً ومتوازنة لتتحقَّقَ السلامةُ والسلمُ والتفاهمُ بكونها أولوياتٍ إنسانيةً. لذلك وجبَ على الجميع بذلُ جهودٍ مخلصةٍ لمكافحة التطرُّفِ عند كلّ قبيلٍ. فقد تسبَّبَ هذا في انقسامٍ كبيرٍ بين الغرب والإسلام وفي العلاقة بينهما فالخوفُ هو أساسُ التعامل والتواصلِ. لذلك يمكنُنا تخفيفُ التوتر بتعزيز فضائلِ الحوارِ والتسامحِ والتعايشِ.

4- صلاحُ الدين: شخصيةٌ إسلاميةٌ قائدةٌ ومستنيرةٌ وحقيقيةٌ:

كتب أحدُ الباحثين الأمريكيين، في معرض حديثِه عنِ القادة المسلمين المتنوّرينَ، أنَّ أزمنة الاضطرابِ بين المسيحيين الأوروبيين والمسلمين ستبرزُ:

> زعيماً مسلماً جديداً، وهو رجلٌ عسكريٌّ متديّنٌ جداً. ولن يكون له فكرُ الرشيد والمأمون، ولا الحاكمُ في القاهرة أو عبدُ الرحمن الثالثُ في قرطبةَ، لكنه سيجسّدُ نوعاً من الشرف الإسلاميّ الفروسيّ وسيدهشُ الأوروبيّين ويحيّرُهم، وسيبدؤون الهمسَ أنَّ عدوَّهم جيدٌ ومحترمٌ جداً يؤهّلُه أن يحملَ دماً "أوروبياً"، اسمُه صلاح الدين وعلى غرار الرشيد، ستكونُ القصصُ المتعلقةُ به مغلَّفةً بالرومانسية والأسطورةِ، لكنَّ كرمَ أخلاقِه الأصيلَ وحُكمَه الإنسانيَّ في وجه التصعيدِ الزائد يظلُّ حقيقياً ونموذجياً. صلاحُ الدين رجلٌ مسلمٌ، نشأ وتعلَّمَ في سوريا، وأبوه رجلٌ عسكريٌّ. يستنتجُ الاثنان أنَّ الطريقة الوحيدة لتمكين المسلمينَ من مقاومةِ هذا الهجوم المسيحيّ الضاري هي توحيدُ جميع فئاتِ المسلمين المقاتلين، وسيكونُ صلاحُ الدين الناجحَ في تسجيل هذه المأثرةِ.[56]

وفيما يأتي ما يقوله المؤرخُ البريطانيُّ ديفيد نيكول عن شخصيةِ صلاح الدين:

> لطالما كان يُنظَرُ إلى صلاح الدين في أوروبا على أنه نموذجٌ للفضيلةِ وبطلٌ ... وفي الشرق الأوسطِ في القرن الثاني عشر، كان أعظمَ رجلٍ على الإطلاق. وهو بلا شك ذو تأثير كبيرٍ في الأفراد الذين كانوا إلى جانبه، بل حظِي باحترام خصومه من المسيحيّين .[57]

ويتذكرُ بهاءُ الدين، كاتبُ صلاح الدين ومؤرّخُ سيرتِه، حادثةً يسردُها وتميّزُ هذا القائدَ عن سائر قادةِ عصره والعصورِ كلِّها:

> كنتُ أسيرُ بجوادي إلى جانب السلطان قبالةَ الفرنج فأقبل نحوَنا أحدُ كشّافةِ الجيشِ ومعه امرأةٌ تنتحبُ وتخبِطُ صدرها، فقال لنا: خرجتْ هذه من عند الفرنج وتريدُ مقابلةَ رئيسِنا فأحضرْناها. وطلبَ صلاحُ الدين من ترجُمانِه أنْ يسألَها فقالت: دخل أمسِ لصوصٌ من المسلمين خيمتي

وسرقوا ابنتي الصغيرةَ. وقضيتُ الليل بطولِه أبكي، فقال لي رؤساؤُنا: إنَّ ملكَ المسلمين رحيمٌ. سوف نترُكُكِ تذهبين إليه، وفي وسعكِ أنْ تطلبي منه ابنتَكِ. وها أنا ذي أتيتُ عاقدةً عليك كلَّ الآمالِ. تأثَّرَ صلاحُ الدين وفاضُ الدمعُ من عينيه. وأرسل أحدَهم للبحث عنِ البنتِ في سوق العبيد، وبعد أقلَّ من ساعةٍ أقبلَ فارسٌ يحملُ الطفلةَ على كتفيه. ولما رأتهُما الأمُّ ارتمتْ على الأرض ومرَّغَتْ وجهَها في التراب فبكى جميعُ الحاضرين. ورفعتْ عينيها إلى السماء، وأخذت تقولُ أشياءَ غيرَ مفهمومة. وأرجعُوا إليها ابنَتها وأعادُوها إلى معسكر الفرنج.[58]

ولكونِ صلاح الدين شخصيةً تاريخيةً حقيقيةً، اتَّخذَ ريتشارد وارين فيلد خيارًا حكيمًا في استعماله شخصيةً إسلاميةً لتأثيرها الإيجابي واستنارتِها وتوقيرِها لدى المسلمين والغربيين الأوروبيين. وتصويرُ فيلد للأحداثِ الواقعية الخاصةِ في الرواية يُسبِلُ مصداقية على تصويرها العامّ للإسلام والمسلمين. فارتبطتِ الحروبُ الصليبية والنضالُ ضدَّهم بشخصيةِ صلاح الدين. وما لا شكَّ فيه أنَّ هذه الحروبَ تركت أثراً ضاراً وغائراً في قلوب المسلمين، ولطولِ المواجهة بين المسلمين والمسيحيين في تلك الفترة، أخذَ بعضُ المسلمين ينظرون إلى المسيحيةِ على أنَّها دينُ الحروبِ الصليبية والعدوانِ والهيمنةِ. لذلك اختارَ فيلد جانبًا حاسمًا من هذا الصراعِ ليكون موضوعاً لروايته.

وفي العالم الإسلامي، يتمتَّعُ صلاح الدين ومعركتُه في حطينَ بشهرةٍ واسعةٍ تماماً. ويُعزَى الانتصارُ التاريخيُّ للمسلمين على خصومِهمُ المسيحيين الأوروبيين، والذي أدَّى إلى استعادة السيطرة على القدس، إلى تحقيق هذا الاعترافِ الواسع النطاقِ. بالإضافة إلى ذلك، يصوّرُ فيلد إنجازَ صلاح الدين الحاسمَ في اتحاد الممالك الإسلاميةِ، وعودةَ فكرةِ الجهاد بكونه حرباً مقدَّسةً ضدَّ غزو المسيحيين الأوروبيين، والالتحامِ بالحملة الصليبيةِ المنظَّمة لغزو الأراضي الإسلاميةِ. ففي تلك المنطقةِ، وصلتِ العلاقةُ بين المسلمين والغرب بعد معركةِ حطينَ إلى مفترق طرقٍ. وإذا ارتبطتْ هذه المعركةُ بالأحداث الجاريةِ آنذاك، فإنها سترسم طريقةً التي ستحدَّدُ فيها العلاقةُ بين الغرب والإسلام. ويعود الفضلُ في بروز صلاحِ الدين ومعركتِه إلى الحشد التاريخيّ

الذي أنجزَه الغربيون في ذلك الوقتِ بتشكيل تحالفٍ غربيٍّ لمحاربة المسلمين في تلك الآونة، مغفلين الدوافعَ الحقيقية وراءَ انخراطِ المسلمين في هذه المعركةِ. ولعل هذا مشابهٌ للحملاتِ العسكرية الغربيةِ الأخيرة والتي شُنتْ على العراق وأفغانستانَ، إذ كان المنطلقُ الأساسُ هجماتِ 11 سبتمبر والتي نجم عنها إعلانُ "الحرب على الإرهاب"، فأعلنَ جورج بوش في 16من أيلول/سبتمبر مباشرة في أعقاب تلك الهجماتِ حملتَه الصليبية قائلاً:"هذه الحملةُ، هذه الحربُ على الإرهاب، ستستغرقُ بعضَ الوقت".[59] ومع ذلك، تمَّ تجاهلُ الأسبابِ الكامنةِ وراء هذه الاعتداءاتِ الإرهابيةِ، ويذكّرُنا ذلك بطريقة الاشتباكِ التاريخيةِ القديمة في الحملة الأولى مع عالم الإسلام والتي أثبتتْ نوايا القيام بحملةٍ استعماريةٍ ضدَّه وألغتْ فكرةَ أيّ حوارٍ مثمرٍ وبنَّاءٍ معه.[60]

فمن الناحيةِ التاريخيةِ، كانتِ الهجماتُ الإرهابيةُ المسيحيةُ الصليبيةُ والغاراتُ المتتاليةُ على ديار الإسلام وحصارُالمدن والقوافلِ والاعتداءُ على الحجَّاجِ المسلمين في المنطقة الأسبابَ الرئيسة وراء حدوثِ معركةِ حطينَ، والتي أدَّتْ في النهاية إلى اندلا ع الحملةِ الصليبيةِ الثالثة. وكانت هذه من أهمِّ الدوافع وراءَ قيام صلاحِ الدين بمواجهة الحملةِ الصليبيةِ المسيحيةِ. تجاهلَ الغربيون هذه الأعمالَ وبدؤوا الهجومَ الواسعَ شرقاً. ويتناول فيلد في روايتِه هذه الحلقاتِ مستعملًا منظورًا تاريخيًا لمناقشة هذه الأحداثِ الفعليةِ.

كان صلاحُ الدين حاكماً قوياً في عقده الخامسِ، بحسب إشارةِ فيلد في بداية الروايةِ. وبعد بذل جهدٍ هائلٍ لتوحيد المناطقِ الإسلامية، حمل مسؤوليَّتَه تجاهَ الإسلام والمسلمين كقائدٍ حكيمٍ. ويرى فيلد أنَّ فرصة صلاحِ الدين لتحرير القدسِ جاءت من الأعمال الإرهابيةِ التي قام بها الصليبيُّ السيّئُ السمعة رينالد أوف شاتيون، والذي استفزَّ صلاحَ الدين بمهاجمتِه قوافلَ الحجَّاجِ المسلمين ونهبِها وقتلِهم في مرتفعاتِ الكرك والتخطيطِ لهجومٍ جريءٍ على ثاني أقدسِ موقعٍ للمسلمين "المدينة المنورة" لسرقة جثمانِ النبيّ محمدٍ (صلى الله عليه وسلم). ويقالُ إنَّ شقيقة صلاحِ الدين كانت بين ركابِ القافلة التي أرسلها صلاحُ الدين، مسافرةً من دمشقَ إلى مصرَ، وتعرَّضتْ للاعتداء من قبل ريجنالد في عام 1187. وحثَّ رينالد الركابَ ساخراً على الاتصال بمحمَّدهم ليأتيَ ويخلّصَهم بعد أنْ رفضَ الإفراجَ عنهم. وأقسمَ صلاحُ الدين أنْ يقتلَه بنفسه وحين قبضَ عليه

كانَ الشخصَ الأعزلَ الوحيدَ الذي قتلَه صلاحُ الدين بسيفه. ومن الجدير بالذكر، أنَّ صلاحَ الدين لما قبض عليه سأله: "يا ترى لو ركبتُ أنا رأسي وسلكتُ ثم وقعتُ أسيراً في قبضتك فأيَّ المواقفِ يكون موقفُك مني"، أجاب "أرناط" بوقاحةٍ: "أقطعُ رأسكَ دون تردُّدٍ".[61] وهكذا، في العام 1187، أعلن صلاحُ الدين الجهادَ واشتبكَ مع الفرنجة في معركة حطينَ، وانتصرَ فيها المسلمون في النهاية. وصارتِ استعادةُ صلاح الدين الأيوبي للقدسِ عام 1187 حدًا فعليًا لتلك الحملةِ الصليبية. وشكَّلَ هذا الانتصار أيضاً ردَّةَ فعلٍ قويةً لقيام الحملةِ الصليبيةِ الثالثة، وهي عمادُ رواية فيلد "سيوف الإيمان". وينظرُ المسلمون إلى الحروب الصليبيةِ على أنها بدايةُ الحربِ الحضاريةِ الغربيةِ المستمرَّة، تحت العديدِ من المظاهر والدعاوى، ضدَّ الإسلام.

وأشعلَ سقوطُ القدس من جديد حماسةَ الحملاتِ الصليبية في أوروبا. فدعا البابا غريغوري الثامن إلى شنِّ حملة صليبية، لمواجهة هذا الخطرِ الإسلاميّ، وجرى تشكيلُ تحالفٍ أشِيرَ إليه باسم "حملة الملوك الصليبية" شارك فيها العديدُ من الملوك. لكنَّها فشلتْ في استعادة القدسِ من المسلمين. وبالنتيجة وقَّعَ صلاحُ الدين وريتشارد قلب الأسد معاهدةً تنظمُ علاقاتِ الطرفين وتشملُ السلع والحجَّ والحقوقَ الدينية .

إنَّ فكرة فيلد في الترويج للإسلام بالكلمة الأدبية، أي بالكتابة عنِ الإسلام وأخلاقِه، يمكنُ النظر إليها بكونها ذكيةً أسهمتْ في مشروعه بالكتابة عنِ الحملة الصليبيةِ الثالثةِ.وهي، بالنسبة إليه، وما فيها من أحداثٍ تذكرنا بحقيقة الإسلام وتسامحِه والتزامِه بالسلام الدائمِ. وبحسب ما نقرؤُه في الرواية، يصرّحُ بيير رشيد: "لكنَّ الله شقَّ طريقاً ليرينَا مستقبلاً أفضلَ بهذا السلامِ. بل أنا أسلمُ بأن اللهَ شاءَ أنْ يحكمَ صلاحُ الدين القدس، لأنَّه الرجل المؤهَّلُ والأفضلُ لفرضِ التسامح والاحترامِ المتبادلِ".[62]

وفي الواقع، يستعملُ فيلد صلاحَ الدين والحملةَ الصليبيةَ الثالثة لتذكير المسلمين بالقيم العالية التي ما زالوا يُبدونَها تجاهَ أعدائهم في أشدِّ المعارك. وهو بمنزلة تذكيرٍ للغرب بتسامح المسلمينَ في وقتٍ كانوا فيه أقوياءَ وناجحين. قال العادل: "إنَّهم يعرفون سلطانَنا". "وسيعرفون أنَّها ليست خدعةً." ابتسمَ صلاحُ الدين. كانت

ملاحظةُ أخيه أعظمَ مجاملةٍ ممكنةٍ له. حتى أعداؤُهُ يمكنُهمُ الاعتمادُ على سمعته المشرّفةِ. عرف العالمُ أنَّ التمسُّكَ بمبدأ الإسلام مصدرُ تلك السمعةِ ".[63]

ووفقًا لوجهة نظر فيلد، كان صلاحُ الدين شخصيةً تاريخيةً وزعيمًا ذا تأثير كبيرٍ في تاريخ الإسلام. واستمرَّ هذا الانطباعُ حتى الوقتِ الحاضر منذ أن تميَّزَ عن غيره من الفاتحين والقادةِ بشخصيتِه الفريدةِ. ولدوره في إعادة القدسِ إلى السيادة الإسلامية بعد ما يقرُب من قرنٍ من النفي والاغترابِ، يتمتَّعُ بمكانة فريدةٍ في قلوب المسلمين في كلِّ مكان. ونال، وهو يمثِّلُ رأسَ الدولةِ الإسلاميةِ في ذلك الوقت، احترامَ خصومِه وحبَّهم له لِمَا أظهره لهم من معاملة شريفةٍ وتسامحٍ مع العداء الشديدِ الذي كان قائماً بين المسلمين والمسيحيين. ومع ذلك، من الجدير بالذكرِ أنَّ فيلد يسعى إلى ربط أخلاقِ صلاحِ الدين ورحمتِه بالتطبيق السليمِ للمبادئ الإسلامية، التي لا تنتمي إلى شخصِه فحسب بل يتَّبعُها كلُّ مسلمٍ حقيقيٍّ. ولذلك يحتوي العملُ على العديد من الآياتِ القرآنيةِ التي تمدُّ المسلمين بالأخلاق. ويتمُّ توفيرُ أحدِ الأمثلة البارزة في السطور الآتية: يقولُ أحدُ الجنودِ المسلمين لبيير:"أنتم تعرفون جيداً السلطانَ والقرآنُ –بالنسبة إلى هذا الأمرِ– لا يسمح بإعدام سجناءَ عاجزين").[64] يقولُ صلاحُ الدين: "القرآنُ أمرَ بالرحمة. ومن مشيئة الله أنْ ينفِّذَها الإنسانُ على الأرض، ودعى إلى الرحمة والحنوِّ.[65]

هذا الجهدُ الذي يُظهِرُ عظمةَ صلاحِ الدين ينبع من التمسُّكِ بتعاليم الأخلاقِ القرآنية. فسعى لتقليد صفاتِ المسلمين الحقيقيّينَ الذين يخضعون لإرادة الله كما أوصى بها في القرآن الكريمِ. واكتسبَ صلاح الدين لذلك معرفةً بالقيم الأخلاقية والرحمةِ في الإسلام ، وهي معرفةٌ منحتْه السمعةَ الطيّبةَ التي استمرَّتِ اليوم حتى بين أعدائه من "الغربيين". فصُوِّرَ (1138–1193) كشخصٍ أسطوريٍّ وبطلٍ على نحو متكرّرٍ في الأدب الغربي وفارسٍ شجاع مثاليٍّ، قادرٍ على أن يكون قاسيًا أو لطيفًا حسبما يتطلَّبُهُ الوضعُ. ويقدِّمُ فيلد شخصيةَ صلاح الدين في روايته كمثالٍ بارز على ذلك، محاولاً إظهارَ الفرق بين المسلمِ الحقيقيّ والمفترض في الأدب المكتوبِ بالإنجليزية، شخصيةٌ صِيغتْ لقولِ أشياءَ كثيرةٍ بطابعٍ راهن.[66]

6- إسهامُ العرب والمسلمين في الحضارة الغربية

قدَّمَ فيلد أيضًا منظورًا غيرَ متحيّزٍ للعرب والمسلمين في روايته، مؤكدًا إسهامَهم في تقدُّمِ الحضارة البشرية، إذ تستند الروايةُ إلى حقيقةِ أنَّ المسلمين والعربَ ابتكروا في مجالاتٍ علميةٍ ومعرفيةٍ بين القرنين السابعِ والخامسَ عشرَ الميلاديين، وهي المدَّة المعروفة بالعصور الذهبية للعرب والمسلمين و"المظلمةِ" بالنسبة إلى الأوروبيين.[67] وكانتِ الإمبراطورية الإسلامية في هذا الوقتِ تشمل أجزاءً كبيرة من تركيا إلى إسبانيا مروراً بسوريا وفلسطينَ التاريخيَّتينِ. وازدهرتِ الصناعاتُ ذاتُ الصلة بالعلوم مثلُ علم الفلك والأسطرلابِ والطبِّ والجبرِ والزراعةِ وصناعةِ الورق والعمارة والترجمةِ والفلسفة والأدب. ومع ذلك، كانت أوروبا تعيشُ عصورَها المظلمةَ، التي بدأت في نهاية القرنِ الخامسِ واستمرَّتْ مدَّةً تزيدُ على ستة قرون، حتى عصرُ النهضة بدأ تقريبًا بالتدريج في القرن الرابعَ عشرَ حتى نهايةِ القرنِ السادس عشر، والذي كان مبنياً على تفاعلٍ مع الحضارة الإسلامية. وتستعرضُ الأسطرُ الآتيةُ من الرواية اختلافَ الحضارتين بعضِهما عن بعضٍ قال صلاح الدين:" قضيتُ معظم حياتي في توحيد المسلمين لكي يُطرَدَ هؤلاء الغزاةُ المسيحيون الوحشيون".[68] وعندَ مناقشة عقدِ اتفاقٍ مع الصليبيين بحضور صلاح الدين يقول العادل: "هؤلاء فرنجةٌ، كفارٌ، رجالٌ متوحشّون وغيرُ متحضرين. يجبُ أن نأخذَ بالحسبان أنهم ميَّالون لارتكاب المذابح، هذه طبيعتُهم، يجبُ أن نقرِّرَ أيُّ جماعةٍ منهم تفيدَ المؤمنين كثيراً".[68]

وكان الغربُ الذي يصفُ العربَ بأنهم متخلّفونَ وبربريُّونَ، في يومٍ من الأيام متخلّفًا وبربريًا، وكان العربُ والمسلمون ماهرين في مجالاتٍ علمية. ووفقًا لتلك الفكرة المعروفة تاريخياً، والتي لها معنى عميقٌ ومهمٌّ كانتِ الثقافةُ الإسلامية في أوجِها بين 700 و 1500 بعد الميلاد، والمؤرّخونَ المسلمون ينظرون إلى العالم الإسلاميّ على أنه مركزُ الحضارة، مع وجود البرابرةِ خارجَ حدودِه.

ويوضّحُ هذا كيفيةَ تجاهلِ الصور النمطيةِ الغربيةِ للعرب والمسلمين – بأنهم جهلة ومتخلّفون – والتاريخِ الغنيّ لحضارتهم. أسهمتِ الحضارةُ الإسلامية في تقدُّمِ الحضاراتِ الغربية والعالميةِ، التي كانت آنذاك محتاجةً إلى

ركائز الحضارة الأساسية وبعيدةً عنها. ويوضّحُ المقتطفُ الآتي من الرواية، حين يوردُ المؤلفُ بعضَ الأمثلة لإسهاماتٍ قدَّمَها العربُ والمسلمون، مثلُ عملِهمُ المتميّزِ في "الأرقام": يقول بيير لرشيد " تدرَّبتُ على أرقامكم – الأرقام الهندية نشيرُ إليها في بعض الأحيان على أنها أرقامٌ عربيةٌ.[69]

ومن الشائع أنَّ العرب حصلوا على الأرقام المستعمَلةِ حاليًا باللغة الإنجليزية من الهند، ثم قدَّموها إلى الغرب في كتاباتِ العالمِ المسلم "الخوارزمي" فأمكنَ استعمالُها في كلِّ مكانٍ من العالم. لكنَّ العرب فعلوا أكثرَ من مجرَّدِ نقلهم لها فقاموا أيضًا بتوسيعِها وبتضمينِها الصفرَ وتفعيلَه. على سبيل المثال، تذكرُ زيغريد هونكه: "كلُّ الأمم تستعملُ اليوم الأرقامَ التي تعلَّمَها الجميعُ عنِ العرب – ولولاها لَما وجِد اليوم دليلُ تليفوناتٍ أو قائمةُ أسعارٍ أو تقريرٌ للبورصة. ولَمَا وجِد هذا الصرحُ الشامخُ من علوم الرياضة والطبيعةِ والفلك. ... كرَّمَنا هذا الشعبُ الذي منّ علينا بذلك الفضل الذي لا يُقدَّرُ، حين أطلقْنا على أرقام الأعدادِ عندنا اسمَ "الأرقام العربية". ولكنّ العربَ أنفسَهم يؤكِّدون، أنهم أخذوا أرقامَهم عنِ الهنود، وسَمَّوْها بالأرقام الهندية".[70] وتستعرض هونكه الرحلةَ الطويلة للأرقام العربية من الهند إلى أوروبا قائلة: " انتشرتِ الأرقامُ العربيةُ التسعة يتقدَّمُها الصفرُ في كلِّ أنحاء أوروبةَ".[71]

وعُثِر على أكبر مكتباتِ العالمِ في السابق في الدول الإسلاميةِ. والجهودُ الملحوظةُ التي بذلها العربُ في ترجمة الأعمال اليونانيةِ وتبنّيها، أدَّتْ إلى إنتاج مصادرَغذَّتِ العالمَ بأنواع مختلفةٍ من العلوم، كانت هذه المكتباتُ في ذلك الوقتِ تحتوي على كنوز معرفيةٍ تمثِّلُ ذروةَ التقدُّمِ المعرفيِّ آنذاك. ويؤكدُ فيلد ذلك في الخطاب الآتي:

> يخاطبُ رشيد بيير: "حافظَ الإسلامُ على التقدُّم الفكريِّ العظيم لليونانيين قبلَ المسيح. وطوَّرَ المسلمون دراسةَ النجومِ والأرقامِ وطبيعةِ الضوء. وابتكروا طريقةً جديدةً لعلاج الناس بالنباتاتِ والأدويةِ في مبانٍ خاصة لعلاج المرضى أظنُّ أنها تسمَّى عندكم "المشافي" بلغتك. المسلمون يتعلمون القراءةَ في كلِّ مكان لأنَّ قراءة القرآن جزءٌ من ديننا.[72]

يشيرُ هذا الاقتباسُ إلى أنه لم يكن هناك بديلٌ للأوروبيين إلا استعمالَهم هذه الإنجازاتِ، إذ يذكر فيلد جهودَ العرب والمسلمين في الحفاظ على التراث العلميّ اليونانيّ وتطويرِه بترجماتٍ وتعديلاتٍ أدخلوها على المعرفة من اليونانية إلى العربية. وتظهر تلك الأعمالُ في مجالاتٍ اهتمَّ بها العربُ والمسلمون وأحرزوا فيها تقدمًا. فدورُ العرب في الترجمة ليسَ قراءةً سلبية؛ ذلك لأنَّهم لم يترجموا هذه الأعمالَ وحسب، بل قدموا أيضًا تعليقاتٍ وشروحاتٍ ومسوّغاتٍ وآراءَ رئيسةٍ وسَّعتْ تلك النصوصَ وعزَّزتْها، وأنتجت ما بدا فيما بعدُ إسهاماً حضارياً كبيراً. ويكشفُ فيلد أيضًا عنِ الانبهار الشديدِ الذي يحوزه العربُ والمسلمون بفروع العلوم المتعدِّدةِ، بما في ذلك المجالاتُ التي اهتمُّوا بها.

ومنِ احترامه للإسلام، يريد فيلد أيضًا في جزءٍ منه أن يشيرَ في روايته إلى أهمية القراءة والتعلُّمِ بالنسبة إلى المسلمين. ويعود الفضلُ في هذا إلى أنَّه أولُ أمرٍ تسلَّمَه نبيُّ الإسلام من القرآن الكريم لما أُعطِيَ الأمرَ الإلهيَّ "اقرأ". فمن الاعتداء على مكتباتٍ بناها المسلمون قبل صراعهم مع الأروبيين، يوضح فيلد همجيةَ الغرب بإظهار محاولاتهم للقضاء على هذا الإرث العلميّ. يوحي بذلك المقطعُ الآتي من الحديث بين رشيد وبيير أنَّ الغربيين غيرُ مكترثين بشأن قيمةِ هذه المعلومات. يقول رشيد لبيير: "أسلافُك حرقوا المكتباتِ وقتلوا المسلمين واليهودَ والمسيحيين الآخرين في أثناء ذلك".[73]

يلقي ما كتبه فيلد الضوءَ على دور المسلمين والعرب وإسهاماتِهم الرئيسةِ في مجموعة متنوّعةٍ من مجالاتِ المعرفة. وقد يُنظر إلى هذا على أنه ردٌّ على اتهام الغربِ بأنَّ المسلمين والعربَ يفتقرون إلى المعرفة. لكن من المهمّ الإشارةُ إلى أنَّ هذه الحضارةَ الرائعةَ تضمَّنتْ إسهاماتِ أفرادٍ من بلدانٍ وديانات مختلفةٍ تحت حكم الإسلام، بما في ذلك المسيحيون العربُ، الذين أدَّوا دورًا مهمًّا في نشر هذه المعرفةِ. ويشيرُ برنارد لويس إلى ذلك قائلاً: "انتقل عددٌ من المهاجرين الناطقين بالعربية وغيرِهم من المسيحيين من لبنانَ وسوريا ودولٍ أخرى إلى أوروبا، فأصبحوا معلِّمين للغرب في الدراساتِ العربية، وأسهموا في تأسيسِ البحث العلميّ العربي".[74]

ويبدو فيلد بهذا التمثيل كأنه يتحدَّى مقولاتِ هنتنغتون والتي تحاولُ وضعَ العلاقاتِ بين الإسلام والغرب في إطارٍ من الصراع الحضاريّ المستحكِم.[75] لذلك من الطبيعيّ الاعترافُ بإسهام العربِ المسيحيين وغيرِهم من أفراد المجتمعِ المسلم في تقدُّمِ الحضارة الإسلاميةِ والحفاظِ على المعرفة، وكذلك دورُهم في نقل هذه المعلوماتِ إلى أشقائهمُ الناطقين بغير العربية في الغرب. وهكذا فإن مصطلحَ "المسلمون" يشير إلى كلِّ من يعتنق الإسلام، بما في ذلك العربُ والأتراكُ والفرسُ والهنودُ وغيرُهم؛ والمسيحيون والمسلمون وغيرُهم من العالم العربي مشمولون جميعًا بمصطلح "العرب" لأنَّهم يستعملون اللغة العربية ويعتنون بها.

7– الموقفُ تجاه الآخر: المسيحيون الشرقيون

وجِدتِ المسيحيةُ في المنطقة العربية منذ نشأتها في القرن الميلادي الأول حتى ظهورِ الإسلام في القرن السابع، وسادتْ بين السكانِ على نحو واسعٍ. ولذلك كان الوجودُ المسيحيُّ حقيقياً في المنطقة، واعتنقتْ بعضُ القبائلِ العربية المسيحيةَ كاعتناقها اليهوديةَ من قبل. ولذلك ظهراسمُ "المسيحيين العرب" الذي يشير إلى معظم الذين يعيشون منهم في الأصقاع العربية، ويشكِّلون في النهاية المجموعةَ المعروفة باسم "مسيحيي الشرق. ومن الملوك الذين تلقَّوا دعوةً للإسلام من النبيِّ محمدٍ (صلى الله عليه وسلم) بعد نشأة الدين، الإمبراطورُ الرومانيُّ هرقلُ في بيزنطة، والذي اعتنق المسيحية دينًا للدولة، والمقوقسُ الذي حكمَ مصر. بالإضافة إلى ذلك، وقع الصراعُ العسكريُّ الأول والأهمُّ بين المسلمين والمسيحيين الغربيين والشرقيين من خارج المنطقة العربية، في معركة اليرموكِ عام 634 م، وكانتِ النتيجةُ لمصلحةِ الجيش الإسلامي. لكنْ على المستوى السياسيِّ، بقي المسيحيون يعيشون في ظلِّ الحكم الإسلامي مع الحفاظ على حريَّتِهم في عبادتهم. ومن المعروف أنَّ العرب والعناصرَ غيرَ العربية تعايشوا في تلك البلدانِ، بما في ذلك المسيحيون الشرقيون والغربيون. بيدَ أنَّ علاقةَ مسيحيِّي الشرق بإخوتِهم المسلمين أقوى من علاقتهم بالمسيحيين الغربيين. ويمكن أنْ يُعزَى ذلك إلى أنَّ المسيحيين والمسلمين لديهم تراثٌ ثقافيٌّ مشتركٌ لأنهم عربٌ أساساً ولوِ اختلفوا في الدين. ولأنَّ الكثير منهم تمسَّكوا بالهوية العربية، اشتركَ العربُ من المسلمين والمسيحيين في الكثير من الأمور الحياتيةِ ولهذا

السبب قرُبوا جدًا من بعضهم؛ أيْ يصعب فصلُ المسيحيين العربِ عن أسلوب حياتهم وثقافتِهمُ العربيةِ. ويشترك المسيحيون والمسلمون العرب في اللغة نفسِها والتراثِ الثقافيّ وطريقةِ العيش والممارساتِ الاجتماعية وطرائقِ الحياة عموماً. ومع ذلك يشتركُ المسيحيون الشرقيون في الدين نفسِه مع الغربيين. وما لا شكَّ فيه أنَّ نموَّ الحضارة العربيةِ الإسلامية أفاد من إسهاماتِ المسلمين والمسيحيين العربِ معاً. ومن ناحية أخرى، أظهرَ الإسلامُ لهمُ احتراماً خاصاً في كافة ضروراتِ الحياة والحقوقِ والواجباتِ الأساسيةِ للوجود في الدولة مع المسلمين جنباً إلى جنبٍ.

ويمكن الإشارةُ إلى "وثيقة" عمرَ، الخليفةِ الثاني للمسلمين، في عام 638 م، كإحدى المراحل الرئيسةِ في التفاعل بين المسلمين والمسيحيين العربِ. إذ منح هذا الاتفاقُ المسيحيين حريةَ الانخراط في ممارساتِهمُ الدينيةِ والسفرِ إلى أماكنهمُ المقدسةِ، وإنشاءِ إطارٍ مؤسَّسيّ رسميٍّ للتسامح. وفي روايته، يستكشفُ فيلد الروابطَ التي كانت قائمة تاريخيًا بين المسلمين والمسيحيين الشرقيين: يصرح رشيدٌ في حديثٍ له مع العادل: "على مدى عقودٍ، عاشتْ عائلتي بسلام مع جميع أنواعِ الناس، بمن فيهمُ المؤمنون الذين يسافرون إلى الأماكنِ المقدسةِ للدين الحقيقيّ، أي أهلُ الكتاب الذين يزورون أماكنَهمُ المقدسةَ، حتى الوثنيون وغيرُ المؤمنين يزورونا ليتعلَّموا طرقَنا، ومنهم من آمنَ بديننا بعد زيارته. حتى تاجرُنا مع جميع أنواع الحجاجِ ...".[75]

يؤيدُ هذا الاقتباسُ التفاعل التاريخيَّ بين المسلمين والمسيحيين، وذلك يدلُّ على أن المسلمين كانوا حريصين للغاية على رفض المواقفِ السابقةِ ضد الأفكار المسيحيةِ وحقِّهم في الحرية الشخصيةِ والدينيةِ. وفي ظلِّ الحكم الإسلاميّ في تلك الفترة، كان التسامحُ رمزاً لهذه المعاملةِ. ومن الأمثلة على هذا الاعتبارِ ما فعله الخليفةُ عمرُ لما وصل إلى القدس، إذ رفض بإصرارٍ أداء الصلاةِ داخلَ كنيسة المسيحيين خوفًا من أن ينظرَ إليها المسلمون على أنها عادةٌ فيقتدون بها ويحوّلون المبنى إلى مسجدٍ.

ولأنَّ الإسلامَ يمنح المسيحيين واليهودَ اعترافًا خاصًا، يقترح فيلد أنَّ الاختلافاتِ الدينيةَ بين المسلمين والمسيحيين لا تشكل حاجزًا أمام تعايشِهمُ السلميّ. ويؤكد أنَّ "أهل الكتاب"، أي المسيحيين واليهودَ،

قريبون من المسلمين خصوصاً. وأنشأ الإسلام مبدأ "أهل الذمة" للحدِّ من أيّ انتهاكاتٍ محتملةٍ ولضمان العيشِ الطبيعيّ لهم. ويبذل المؤلفُ جهدًا لدعم ذلك: يسمع بيير عطية تقول "يمكن للجميع الذهابُ إلى القدس الآن؟". وتتابع، "الجميعُ تحت حماية السلطان .. من الأديان كلِّها.. مسيحيون ومسلمون ..". يتجهَّمُ بيير ويقول " حتى اليهودُ ".[76]

يقفُ هنا فيلد على ضرورة معاملة المسيحيين وغيرِهم معاملةً حسنةً. ويلمح أيضًا إلى الطريقة التي يتعايشُ بها المسلمون والمسيحيون، وقامتْ على الثقة والأمانِ بدلاً من الخوف. لذلك يجعلُ القدسَ، المرتبطة حاليًا بالنزاع، رمزاً للتعايش المتناغمِ بين أتباع جميعِ الأديان. وبالنسبة إليه، من الأهمية بمكان فهمُ ما تعنيه القدسُ للمسلمين والمسيحيين واليهودِ.

ومن الأهمية الروحيةِ للقدس في العالم المسيحي ومكانتها وموقِعها الذي لا يُحلَّ محلَّهُ مكانٌ آخرُ في القداسةِ عندهم، سمح المسلمون للمسيحيين بالبقاء فيه. ومن رحلاتِ الحجاج، زادتِ الألفةُ بين المسلمين والمسيحيين. وما زالتِ القدسُ أيضًا خيطاً يربط الناسَ معًا ويحدّدُ العلاقة بين المسيحيين الغربيين والشرقيين. وأبرزَ فيلد إشكاليةَ العلاقةِ بين الغزاة الغربيين والمسيحيين الشرقيين في كلماتِ صلاح الدين، "وأبلغُ الكلمةَ لأهل الكتابِ كلِّهم؛ أنهم يستطيعون دخولَ المدينةِ المقدسةِ فوراً. وأبلغ الكلمة لجميع أهلِ الكتاب الذين عانَوا على يد الفرنجة. أُدعُ اليهودَ، أُدعُ المسيحيين السوريين، والإغريقَ، والأرمنَ، والجورجيّين – مرحبًا بهم مرة أخرى".[77]

ومن كشفِ الازدواجية الأوروبية في معاملتها للمسيحيين الشرقيين، يرى فيلد أنَّ العلاقة بين المسيحيين الغربيين والشرقيين ضعيفةٌ. وإنْ وجِدَ شعورٌ بالحذر بينهما، إلا أنَّ هذه العلاقة لم تؤسَّسْ على ثقة متبادلةٍ كاملةٍ. فمن الواضح أنَّ مسيحيّي الشرق لم يرحّبوا بوصول إخوانهم في الدين من أوروبا، يقولُ بيير لعطيةَ مصرحاً بذلك، "ثمة شكوكٌ حولنا. المسيحيون الشرقيون الذين ينتمون إلى هذه المنطقةِ لا يصدقّونني. إنني إفرنجيٌّ".[78] وتأثرتْ مواقفُ المسلمين تجاهَ المسيحيين المحلّيّين فأصبح ولاؤُهم محلَّ شكٍّ. يؤكدُ يوسف باتيت

لصلاح الدين: "نحن نُضطهَد أيضاً بقدر ما يُضطهَدُ المسلمون من هؤلاء المسيحيين في أوروبا الغربية، ونحن حريصون على مساعدتكم ". وحين يقرُّ صلاحُ الدين اقتحامَ أسوار المدينة يجيبُه، " سننجحُ بالهجوم من هذه النقطة، ... ولكنَّنا لن ننسى مساعدتَكم لنا".[79]

وإنِ انتمَوا إلى الدين نفسِه في الحقيقة، فإنَّ الرواية تصوِّرُ الصراعَ الذي كان قائماً بين المسيحيين الأوروبيين والشرقيين. يرى الراوي أنَّ هذا يمكنُ أن يكون مرتبطًا بقضايا نتجتْ عن تدخُّلِ الغرب في الشؤون الشرقية. أما علاقةُ مسيحيّي أوروبا والشرقِ فتقوم أساساً على الدين، وذلك يعطي الانطباعَ بأن الناسَ منقسمون بحسب دياناتِهم لا مواقعِهم وقضاياهم ومصالحِهمُ الوجوديةِ. فأيُّ خلافٍ بين الغرب والمسلمين سيجعل العربَ المسيحيين عرضةً لأنْ يتَّحدوا مع إخوانِهمُ المسيحيين في معركة الأديان هذه، وهو ما يسيءُ للعلاقة بين المسلمين ومسيحيّي الشرق. وتتضمَّنُ الرواية أصداءً لهذا الفهمِ، يقول بيير لعطية: "بالنسبة إلى هذا الجيل الثالثِ مثلي، هناك دائمًا مشكلةٌ لما يأتي الأوروبيون إلى هنا، يأتون متسكِّعين إلى هنا، ويبتعدون عن جيراننا المسلمين، وغالبًا ما يتصرَّفون بفظاعةٍ تجاه الأشخاصِ الذين تعوَّدْنا التعايشَ معهم".[80]

كان عاملُ التدخل الأوروبيّ في التاريخ هو المثيرَ لمشكلة المسيحية العربيةِ تجاه الإسلام والتحيُّزِ أو تقديراتِ المسلمين لهؤلاء المسيحيين. وهذا يوضح المدى الذي أضرَّ به الغربُ الروابطَ الودِّية بين المسلمين والمسيحيين في الشرق. وتجدر الإشارةُ إلى أنَّ فيلد يؤكد في روايته وجهةَ نظر مسيحيّي الشرق تجاهَ الغرب لا العكسَ. ويمكن إرجاعُ ذلك إلى التأثير السلبيّ للسياسة الغربية في استقرار حياةِ المسيحيين في المنطقة، فيضعُهم ذلك بين سندان المتشدِّدينَ الإسلاميّينَ ومطرقةِ المواجهةِ الغربية المزعومةِ للإرهاب العالمي. بالإضافة إلى ذلك يشرحُ كينيث كراج:

> حمل الوجودُ المتنوّعُ لـ "العامل الأوروبي" في تاريخ الشرق الأدنى أعباءً على المسيحية العربية بطرقٍ محيِّرةٍ ومأساويةٍ أحيانًا. أوروبا – باعتبارها قارةً "مسيحية" تنافسيةً في التجارة – اخترقت حملاتُها الصليبية والحجُّ والدبلوماسيةُ المشهدَ المسيحيَّ الشرقيَّ وعطَّلتْه وأثارتْ قلقَه في القرونِ الوسطى

والحديثةِ الطويلة، وانخرطتْ في الخير والشرّ مع العواملِ المحليةِ المعقدةِ – العقائديةِ والطائفيةِ، والإقليميةِ.[81]

ويوضحُ فيلد في عمله الروابطَ بين المسلمين والمسيحيين في أوروبا والمسيحيين العرب. وفقًا لرأيه، هناك الكثيرُ من الخلاف بين المسيحيين الشرقيين والغربيين. يخلطُ المسيحيون الغربيون السياسةَ والمصالحَ بالدين، ويركز المسيحيون الشرقيون كثيراً على الدين. هذا بالضبط له تأثيرٌ سلبيٌّ في كيفية تفاعل المسيحيين والمسلمين على نحو جيّدٍ في الأماكن الإسلاميةِ المشتركة. وفي الجمل الآتية، يوضحُ فيلد أحدَ المبادئِ السابقةِ عن هؤلاء المسيحيين في الشرق؛ يصرّحُ صلاحُ الدين عند حصاره القدس: "أحصى جواسيسُنا فارسين هناك، وهناك يهودٌ ومسيحيون شرقيون على استعدادٍ لفتح البواباتِ لنا والانقلابِ على الفرنجة".[82]

وتكشفُ هنا العلاقةُ بين المسيحيين الأوروبيين والعرب، كما يصوّرُها فيلد، عن غيابِ الثقة بينهم. وباستعمالِ ارتباطهم بالغرب لمصلحة المسلمين، يوضحُ فيلد أنَّ الغربَ يتَّهمُ المسيحيين العربَ بالوقوف إلى جانب أعدائهم. ومع استعمالِ الغرب قضيةَ مسيحيّي الشرق لتعزيز أهدافه الاستعماريةِ فيه، لا يتوانى عن تصويرهم بأنهم جواسيسُ للمسلمين.

ومن بعض النواحي، ينجحُ فيلد في التغلُّبِ على معظم التحدّيات التي يواجهُها الغربيون عادة عند محاولتهم فهمَ الإسلام. فمن الواضح، من ربط شخصياتِ الروايةِ بالحياة الحديثة، وحياةِ الروائي الشخصيةِ خصوصاً، نكتشف أنَّ فيلد يعبّرُ عن مواقفه وأفكارِه بشخصية بييرعموماً. ولأنَّ بيير يمثل شخصيةً مسيحيةً غربية ذاتَ حضورٍ ملحوظٍ في الرواية، يتفاعلُ مع كلّ شخصيةٍ تقريبًا في الرواية، يتأثَّرُ ويؤثرُ، وهو قادرٌ على التفاعل والدفاع عن حقيقة الإسلام بإجراء محادثاتٍ مباشرة مع المسلمين بقناعاتٍ ذاتيةٍ حصل عليها بتجاربَ عيانية. وهذا مشابهٌ لحياة فيلد الشخصيةِ وتفاعلِه المباشرِ مع المسلمين وعيشِهِ في ثقافةٍ متعدّدةِ الجوانب، وتعرَّفَ الثقافةَ العربيةَ الإسلامية من مصادرَ علميةٍ رصينةٍ، فكلا العاملين الذاتيّ والموضوعيّ أثَّرا في كتابته هذه الروايةَ المتميّزةَ. والتاريخُ يثبتُ على نحو إيجابيّ الكثيرَ من الأفكار التي أثارها في مشروعِه الفنيّ هذا.

الخاتمة:

اقتضى كونُ المؤلفِ غيرَ معروف بين القرَّاء والنقادِ العرب أنْ تُفتتَحَ الدراسةُ بنبذةٍ عن حياتِه وأهمّ أعماله التي تضيءُ مواقفَه الأدبيةَ والفكريةَ تجاهَ العرب والمسلمين. والواقعُ أنَّ آراءَه السياسيةَ في العالم الإسلامي عموماً انعكاسٌ لما عايشهُ من الوضعين الثقافي والسياسيّ. لذلك كتب ريتشارد وارين فيلد، عددًا من المقالات في مواضيعَ حساسةٍ تتعلق بحياة المسلمين وتاريخِهم لتحليلِ التصوراتِ المشوَّهة عنهم ومراجعتِها وتصحيحِها. والدروسُ والرسائلُ التي تقدّمُها أعمالُه الأدبية ذاتُ مغزًى ودلالةٍ راهنةٍ مهمَّةٍ حقًّا. ويستعملُ قراءاتِه الشاملةَ للكتب ذاتِ الصلةِ بالموضوع المنشورة، ولا سيما المتعلقةِ بـ "العصر الذهبي" للإسلام، لكي يستكشفَ ويراجعَ ويصحّحَ مسارَ العلاقاتِ المتوترة بين الجانبين بطريقةٍ فنيةٍ وفكريةٍ راقيةٍ. فكان قادرًا على تعرُّفِ العرب والمسلمين عن كثب، بغض النظر عمَّا تصوّرُه وسائلُ الإعلامِ الغربيةُ وكيف حاولتْ وتحاولُ تمثيلَهم بوجهٍ سلبيٍّ أمام الغربيين. لذلك، يمكنُنا أن نلاحظ موضوعيةَ فيلد في معالجة أهمّ الصراعاتِ الغربية والشرقيةِ المتمثّلةِ بالحرب الصليبية، فهو ينتقد أفكاراً غربيةً بوضوح لتطرُّفها وانحيازِها تجاه المنطقة الشرق أوسطية، ويعارضُ فكرةَ تعميم وجهاتِ النظر والأحكامِ المتَّخذةِ بوجهٍ متكررحيال شعوبِ المنطقة. ويتطرقُ في غضون ذلك إلى التعصُّبِ والتشدُّدِ عند بعض الجماعاتِ الإسلاميةِ.

ويقدمُ دليلاً من الحقيقة التاريخية لدعم وجهة نظرِه في دحض هذه الاتهاماتِ والتصوُّراتِ الخاطئةِ بلا تفريط. ولذلك نراه يحاولُ تصويرَ التسامح الإسلاميّ بدلاً من الإرهاب الإسلاميّ. ويقارنُ تصويرَ العرب والمسلمين على أنهم متخلِّفونَ بإنجازاتهم في القطاع الطبيّ لإبراز كفاءتِهم في جملةٍ متنوّعةٍ من مجالاتِ المعرفة في الماضي.لذلك تبذل هذه الدراسةُ جهدًا لفحص هذه الصور باستعمالِ شخصياتٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ من الرواية.

ويكتسبُ صلاح الدين بشخصيتِه الأخلاقية، وتسامحِه، والتزامِه بالشريعة الإسلامية في أثناء الحملة الصليبية الثالثةِ، قدرًا كبيرًا من التقدير في الغرب. ولما صوَّر بعضَ تعاليم الإسلام في الرواية، بذل أيضًا جهدًا للتعبير

عنِ التسامح الإسلاميِّ الذي يظهر في ذروة الصراعِ مع العبيد والأسرى ومعتنقي الدياناتِ الأخرى. ومن تصوير الفظائع التاريخيةِ البشعةِ والتي ارتكبها الصليبيون الأوروبيون ضد الأبرياءِ المسلمين والعربِ خلال حربهم في الشرق، توضحُ القصة بذكاءٍ التناقضَ بين التسامح الإسلاميِّ والتعصُّبِ المسيحي. على سبيل المثال، يتناقضُ سردُ التسامحِ الإسلاميِّ للأسرى المسيحيين مع وحشية ريتشارد قلب الأسد، والتي أدت إلى مقتل جميعِ الأسرى المسلمين. وتُبطِلُ الرواية الفِريةَ القائلة بأن الغرب محرِّرٌ وهو في الواقع مدمِّرٌ.

وإلى جانب عرض الصور النمطيةِ للمسلمين والعرب بكونهم إرهابيين، يقفُ فيلد على إحدى الأفكار الكلاسيكية في الأدب الإنجليزي – ألا وهي الإسلامُ وعداؤُه المستحكمُ ضد الغرب. فلدى المسلمين معتقداتٌ تتعارضُ على نحو صارخ مع معتقداتِ بعضِ المسيحيين، مثلُ نظرتهم إلى يسوعَ المسيحِ، الذي يعدُّهُ المسلمون نبيًا وإنسانًا لا إلهًا. ولأن المسيحيين يعتقدون أنَّ المسلمين يحاولون تغييرَ عقيدتِهم وتحويلَهم إلى الإسلام، يستَعمَلُ هذا للتشهير بالمسلمين وتصويرهم على أنهم أعداءٌ مستمرُّون للمسيحيين. وإنِ استعملوا العنف، فهم يظنُّون أنَّ المسلمين ينظرون إلى المسيحية على أنَّها دينٌ منحرفٌ يجب إعادتُه إلى طريق الصواب ولو بالقوة لتحقيق ذلك، وتحاول الروايةُ دحضَ هذا الاعتقادِ السائدِ. فالإصرار على الثناء الهائلِ ليسوعَ النبيِّ والمسيحيةِ الدينِ، يوضح بالضبط كيف ينظرُ المسلمون إلى يسوعَ المسيحِ والمسيحيةِ. ويظهرُ فيلد الإعجابَ بأهل الكتاب في الإسلام، والذين يمثلهم من يسمَّونَ بأهل "الذمة"، والذين يضمنون حريةَ ممارسةِ دينهم دون إجبارهم على اعتناق الإسلام وهم في مأمنٍ من الأذى. ومن الجانب الآخر، يوضحُ فيلد كيف يرفضُ الغربُ الإسلام ويتعاملُ بقسوة مع الدين ورسولِه. لكنَّه يقر أيضًا بدين الإسلام، وتنبعُ هذه القناعةُ من تسليمه بأنَّ هناك طرقًا عديدة للوصول إلى الله.

وتتناولُ الرواية أيضاً موضوعاً آخر هو تصويرُ العرب والمسلمين على أنهم متخلفون ومتعصبون، وفي هذا السياق يبذلُ المؤلف جهدًا للتفاعل مع أفكارهم، والتأكيدِ على الإسهام المهمِّ الذي قدمتْه الحضارةُ العربيةُ والإسلاميةُ المبكرة لحضارة العالمِ الحديث. لذلك خصَّص جزءًا من روايته لإظهار تفوُّقِ هذه الحضارة على

الغرب المتخلّفِ في تلك الحقبة في عددٍ من المجالاتِ العلمية. ولذلك تشير القصةُ إلى وحشية تدميرِ الغرب لمكتباتِ العالمِ العربي، مستشهدة مثلاً بجهودٍ بذلها العربُ والمسلمون لتطويرالأرقام الهندية وترجمة النصوصِ اليونانيةِ وتطويرها. وفي العمل أيضًا مصطلحاتٌ مرتبطةٌ ارتباطاً وثيقًا بتصوير العرب والمسلمين على أنهم "مسلمون" و"أتراكٌ" و"ساراسين"على التوالي، وفي الردّ على هذه الصورة الخاطئة يؤكد رفضَه لهذه التصنيفات التي عفا عليها الزمنُ ويدعو إلى الاحترام المتبادلِ للتعايش في وئام. ولتوضيح ذلك يرسمُ حوارًا بين شخصين عاقلينِ من المعسكرين المتحاربينِ بيير ورشيد.

وكان لأحداث 11 سبتمبر 2001 تأثيرٌ كبيرٌ في الحياة الأمريكية، إذ كانتِ المسؤولةَ عن زيادة التركيز على مشكلة الإرهاب. وغيَّرتْ هذه الأحداثُ كثيراً كيفية تصويرِ الشخصياتِ العربية والإسلاميةِ في الأدب الأمريكي. ولذلك يتمُّ تصويرُ العرب والمسلمين على أنهم جهاديون ومتطرّفونَ وإرهابيون. قد نلاحظ الاتّساقَ والاستمرارَ في استعمال العديد من الوجوه النمطية التي عفا عليها الزمنُ للعرب والمسلمين في الرواياتِ الأمريكيةِ المعاصرة، مثلُ الإشاراتِ إليهم بـ "الساراسين" و "الكفارِ" و"أعداءِ المسيح" و"الأتراكِ" و "المتخلفين". وهذه التصوُّراتُ المخروصةُ نتيجةُ عاملين رئيسين: الأول هو سياسةُ الاستشراق، التي تحاولُ تشويهَ الواقعِ على نحوأساسيٍّ قبل اختراع قصصٍ كاذبةٍ جديدة لتعزيز أهدافِها واهتماماتِها. والعامل الثاني، الذي ساعد على إعطاء الروايةِ الأمريكية موضوعَها ومنظورَها الجديد، هو الأحداثُ الإرهابية الأخيرة التي يُفترضُ أنَّ مرتكبيها بعضُ "المسلمين". إذ لم يعد من الشائع رؤيةُ العربِ والمسلمين بأنهم مفعمون بالحيوية والرفاهيةِ ومهتمون أكثرَ بعيش حياةِ التقدمِ والازدهار .

وختاماً، الشخصياتُ العربية والمسلمةُ في الروايات الأمريكيةِ لا تتلقَّى أبدًا وصفاً مستقلًا حقًا لأن بعض المؤلفين مثلُ أبدايك وبيترز وأغناطيوس ونيبول وغيرِهم لا يتعاملون معها بفهمٍ واقعيٍّ ودقيقٍ، بل يلتزمون ويتناولون صورَهمُ النمطيةَ المتوافرةَ والراسخةَ في أذهان الغربيين. ولذلك يصِمُ أولئك الروائيون العربَ والمسلمين بأباطيلَ مختلفةٍ، وذلك ينشرُ الجهلَ والتضليلَ بشأنهم في الغرب. ومع ذلك، يجبُ أن نتجنَّبَ ارتكابَ الخطأ

نفسِه في الأحكام غير الواعية والاعترافِ بوجود أصواتٍ إيجابيةٍ معينةٍ تدعو إلى التصوير الواقعيّ للعرب والمسلمين بصرف النظر عن مشاعر الغضبِ التي تنشأ من ذلك. يبرزُ فيلد في رواية "سيوف الإيمان" مثالاً متميزاً برواية مختلفة تماماً. لذلك يمكن أنْ نوصيَ بضرورة عنايةِ الباحثين العربِ والمسلمين في معالجة هذه المسألةِ المنتشرة على نطاق واسع في الأعمال الأدبيةِ الأمريكية والبريطانيةِ وغيرِها من الأعمال الأدبية المنشورةِ باللغة الإنجليزية، في دراساتِهمُ المعاصرة خصوصاً في ظل عملية تشويهِ صورِ العرب والمسلمين والتي زادتِ التضاغنَ والتنافرَوالبغضاءَ والعداوة بين الشرق الإسلامي والغرب. وهذا يستدعي إبداءَ جهود حثيثة، خاصةً من المسلمين والعرب أنفِسهم، لتغيير هذه العقليةِ المتراخية والتي تنتج صوراً نمطيةً متوالية بالبحث عن تمثيلاتٍ فنية واقعية: كتبٌ وقصصٌ ومسرحياتٌ وأفلامٌ ومقالاتٌ متنوعة تتضمَّنُ آراءَ أكثرَ إيجابيةً تجاه العرب والمسلمين لكشف واقع عقيدتهم، وثقافتِهم، والعالمِ من حولهم، ولا سيما فكرةِ التسامح الإسلاميّ التي تتعارض مع ما يسودُ في الغرب من أفكار ذهنيةٍ سابقةٍ.

الحواشي:

1- لمزيد من التفاصيل، انظر، سيرة المؤلفِ على الشابكة العنكبوتية. (صفحة المؤلف بالإنجليزية).

2- انظر على سبيل المثال:

"ماذا تقول سيوفُ الإيمان عن عصرنا"

"لا، ليستِ الحملاتِ الصليبيةَ"

"شيطنة الإسلام خطأٌ وغباءٌ"

"حربُ العراق: إقرارٌ خاطئ أم مهمة شريفة وصعبة"

"أحد عشر/ تسعة"

"صلاح الدين ليس بنَ لادن ولا صدام حسين"

– "Demonizing Islam is Both Wrong and Foolish"

- "Don't Panic, Let Democracy Work,"
- "Nine Eleven"
- "No, it's not the Crusades"
- "Saladin Was Not Osama Bin Laden or Saddam Hussein"
- "The Iraq War: A Wrong Decision or a Difficult But Worthy Mission?"
- "What Swords of Faith Says about our Time"

3-انظر، كريستوفر تيرمان، الحملاتُ الصليبيةُ (أكسفورد: منشورات جامعة أكسفورد، 2004 ، ص 1. (بالإنجليزية).

4-المرجع نفسه، ص 3.

5-لمزيد من التفاصيل، انظر، إدوارد سعيد، تغطيةُ الإسلام، ترجمة محمد كرزون (دمشق: دار نينوى، 2011)، ص، 42-43.

6-انظر، المرجع السابق، ص 41.

7-انظر، على سبيل المثال: جلال عبد الله المرازيق، تصويرُ العرب والمسلمين في الرواية الأمريكيةِ الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد، رسالة ماجستير، جامعة جرش: 2014، الفصل الثالث خصوصاً، ص 60-79. (بالإنجليزية)

8-انظر، عامر إبراهيم المسيعدين، تصويرُ حرب الخليج في الرواية البريطانية الحديثة، دراسة في روايتين لفريدريك فورسيث "قبضة الله" وآندي مكناب "برافو 2 0"، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2015. (بالإنجليزية).

9-انظر، محمد محمود العتوم، شخصية الأصوليّ في الرواية الحديثة: أورهان باموق "الثلج" ومحسن حميد "الأصوليُّ المتردِّدُ" في المنظور، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2017، الفصل الثالث خصوصاً، ص 57-84. (بالإنجليزية).

10-انظر، قيس محمود عبد الرحمن، الإسلام والمسلمون والغرب وقضية الإرهاب: دراسة مقارنة في رواية إيمي والدمان " التقديم للجائزة" ورواية ميشيل هوليبك "استسلام"، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2018، الفصل الثاني خصوصاً، ص 27-51. (بالإنجليزية).

11-ريتشارد وارين فيلد، سيوف الإيمان (هانتغدون فالي- الولايات المتحدة، سترايدر نولان ميديا، 2010). (بالإنجليزية).

12- نسرين توفيق يوسف، تمثيلاتٌ معاصرةٌ للحملة الصليبية الثالثة في نصوصٍ بريطانيةٍ وأمريكيةٍ، رسالة دكتوراه، جامعة ليستر في بريطانيا عام 2017.

13-نسرين يوسف" سيوف الإيمان لريتشارد وارين فيلد: تناظرٌ تاريخيٌّ بين الحملة الصليبيةِ الثالثة والحادي عشر من أيلول/سبتمبر"، المجلة الدولية للفنون والعلوم، مج 8، ع 8 (2015)، ص 273- 281. وطورتْ هذه الدراسةَ وظهرتْ في الفصل الثاني من رسالتها للدكتوراه الآنفةِ الذكر.

14- فيلد، سيوف الإيمان، ص 345.

15- لبعض التفاصيل، جلال المرازيق، تصويرُ العرب والمسلمين في الرواية الأمريكية الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد، ص 22-23.

16- لمزيد من التفاصيل، انظر، نسرين يوسف، تمثيلاتٌ معاصرة للحملةِ الصليبية الثالثة في نصوصٍ بريطانيةٍ وأمريكيةٍ، ص 113- 136.

17- انظر، صموئيل هنتنغتون، صدامُ الحضاراتِ وإعادةُ بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف (بنغازي: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1996).

18- فيلد، سيوف الإيمان، ص 80.

19- المرجع نفسه، ص 19.

20- المرجع نفسه، ص 81.

21- المرجع نفسه، ص 78.

21- المرجع نفسهن ص 267.

22- المرجع نفسه، ص 269.

23-المرجع نفسه، ص 452.

24- المرجع نفسه، ص 32.

25- المرجع نفسه، ص 40-41.

26- المرجع السابق، ص 111-112.

27- المرجع السابق، ص 110.

28- المرجع السابق، ص 182.

29- المرجع السابق، 192.

30- المرجع السابق، ص 80.

31- ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمَه إلى العربية إلياس شاهين (موسكو: دار التقدم، 1986)، ص 3.

32- انظر، اقتباس وارد في كتاب، مايكل هاملتون مورغان، التاريخُ الضائع لأعلام المسلمين، ترجمَه وقدَّمَ له فؤاد عبد المطلب (عمان: وزارة الثقافة الأردنية، 2016)، ص 290-291.

33- انظر، برنارد لويس، الإسلام والغرب، ترجمة فؤاد عبد المطلب (عمان: دار زهران، 2014)، ص، 27؛ ولمزيدٍ من التفاصيل انظر أيضاً، جلال المرازيق، تصوير العرب والمسلمين في الرواية الأمريكيةِ الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد، ص 32-39.

34- انظر، "الناصرة"، معجم البلدان، 251/5.

35- انظر، موسوعة ويكيبيديا مصطلحُ "ساراسين"؛ جلال المرازيق، تصويرُ العرب والمسلمين في الرواية الأمريكية الحديثة، ص 32-34.

36- انظر، محمد النصرات وسلامة النعيمات، مصادرُ لدراسة تاريخ جنوب الأردن في الفترة البيزنطية (324- 636م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 3، العدد 2، 2009، ص 11-13.

37- فيلد، سيوف الإيمان، ص 25.

38- المرجع نفسه، ص 352.

39- المرجع نفسه، ص 68.

40- برنارد لويس، الإسلام والغرب، ص 53.

41- انظر، كينيث كراج، المسيحيُّ العربيُّ: تاريخ في الشرق الأوسط (لويسفيل، كي: ويستمنستر/ منشورات جون نوكس،1991)، ص137. (بالإنجليزية).

42- بنيدكت سكوت روبنسون، الإسلام والأدبُ الإنجليزي المبكر: سياسة الرومانس من سبنسر إلى ميلتون(نيويورك: بالغريف ماكميلان، 2007) ص 8.

43- فيلد، سيوف الإيمان، ص 17.

44- المرجع السابق، ص 122.

45- المرجع السابق، 114-115.

46- المرجع السابق، ص 42.

47- المرجع السابق، ص 107.

48- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة محمد عناني (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2008)، ص 125.

49- فيلد، سيوف الإيمان، ص 114.

50- "Assassins" دخلتْ هذه اللفظةُ إلى الإنجليزية من العربية وتعني "الحشاشين". ولاقترانِ فعلِ تدخينِ الحشيش بفكرة القتلِ والاغتيالِ السياسيِّ أصبحت تفيد معنى "القتلة". لذلك سنستعملُ المعنى الأصليَّ في النصِّ بلا دخولٍ في التفاصيل. لكن الإشارة هنا إلى سنان العراقي المولد والذي وصلَ إلى زعامة الفرقة عام 1162 وأرسل تهديداتٍ لصلاح الدين الذي تعرَّض لمحاولتيِ اغتيالٍ من هذه الفرقة. وقعتْ أول محاولةٍ من الحشاشين لاغتيال صلاح الدين في ديسمبر1174 م/568 هـ. وحدثت المحاولة الثانية في 22 مايو 1176 / 572هـ.

51- فيلد، سيوف الإيمان، ص 172.

52- المرجع السابق، ص 94.

53- المرجع السابق، ص 404.

54- المرجع السابق، ص 458.

55- المرجع السابق، ص 497.

56- مايكل هاملتون مورغان، التاريخ الضائع لأعلام المسلمين، ص 292.

57- ديفيد نيكول، حطين 1187: الانتصار العظيم لصلاح الدين (لندن: أوسبري، 1993)، ص 14-15؛ وانظر، جلال المرازيق، تصويرُ العرب والمسلمين في الرواية الأمريكيةِ الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد، ص 45.

58- اقتباسٌ واردٌ في كتاب، أمين معلوف، الحروب الصليبية كما رآها العربُ، ترجمة عفيف دمشقية (بيروت: دار الفارابي، 2001)، ص 244.

59- اقتباسٌ واردٌ في كتاب، جوناثان ليونز، الإسلام بعيونٍ غربيةٍ: من الحملات الصليبية إلى الحرب على الإرهاب (نيويورك" منشورات جامعة كولومبيا، 2014)، ص 1.

60- لمزيد من التفاصيل عن الحملات الصليبية بوصفها مشروعاً استعمارياً، انظر، نسرين يوسف، تمثيلات معاصرة للحملة الصليبية الثالثة في نصوص بريطانية وأمريكية، ص 74- 82.

61- لمزيدٍ من التفاصيل، حول أعمالِ رينالد السيئة والقبضِ عليه وقتلِه، انظر، فيلد، سيوف الإيمان، ص 41-42. وانظر، سيبان حسن علي، "القيمُ الحضارية لمعارك صلاح الدين: معركةُ حطين وفتحُ بيت المقدس أنموذجاً"، مجلة دهوك، المجلد 24، العدد 1(العلوم الإنسانية والاجتماعية)، ص 463-492، ص474 خصوصاً، ويشير هذا البحثُ إلى مصادرَ عربيةٍ تاريخيةٍ وردت فيها هذه الحادثة.

62- فيلد، سيوف الإيمان، ص 498.

63- المرجع السابق، ص 86.

64- المرجع السابق، ص 38.

66- رسالةُ نسرين يوسف ، تمثيلاتٌ معاصرةٌ للحملة الصليبية الثالثة في نصوصٍ بريطانيةٍ وأمريكية، تمثلُ مرجعاً أكاديمياً رصيناً ووافياً يرصد أعمالاً أدبية وفنيةً غربية رئيسة تصوّرُ شخصيةَ صلاح الدين.

67- عولج هذا الموضوعُ على نحو وافٍ ومختلفٍ، انظر: نسرين يوسف، تمثيلاتٌ معاصرةٌ للحملة الصليبية الثالثة في نصوصٍ بريطانيةٍ وأمريكيةٍ، ص 100 -105؛ وجلال المرازيق، تصوير العرب والمسلمين في الرواية الأمريكية الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد، ص 50 -53 .

68- فيلد، سيوف الإيمان، ص 363.

69- المرجع السابق، ص 69.

70- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب (عمان: وزارة الثقافة الأردنية، 2013)، ص 69.

71- المرجع نفسه، ص 69 – 76.

72- فيلد، سيوف الإيمان ، ص 115.

73- المرجع السابق، ص 115.

74- برنارد لويس، الإسلام والغرب، ص 211.

75- لمزيدٍ من التفاصيل، انظر، نسرين يوسف، تمثيلاتٌ معاصرةٌ للحملة الصليبية الثالثة في نصوصٍ بريطانيةٍ وأمريكية، ص 100-105.

75- فيلد، سيوف الإيمان، ص 56.

76- المرجع السابق، ص 482.

77- المرجع السابق، ص 96.

78- المرجع السابق، ص 191.

79- المرجع السابق، ص 90.

80- المرجع السابق، ص 379.

81- كينيث كراج، المسيحي العربي: تاريخ في الشرق الأوسط، ص 10.

82- فيلد، سيوف الإيمان، ص 80.

المراجع بالعربية:

- المرازيق، جلال عبد الله. تصويرُ العرب والمسلمين في الرواية الأمريكيةِ الحديثة: رالف بيترز وريتشارد وارين فيلد، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2014. (بالإنجليزية).

- المسيعدين، عامر إبراهيم. تصويرُ حرب الخليج في الرواية البريطانية الحديثة، دراسةٌ في روايتين لفريدريك فورسيث "قبضة الله" وآندي مكناب "برافو 2 0"، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2015. (بالإنجليزية).

- النصرات، محمد، والنعيمات، سلامة. مصادرُ لدراسة تاريخ جنوبِ الأردن في الفترة البيزنطية (324-636م)، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد 3، العدد 2، 2009، ص 11-13.

- أمين، معلوف. الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة عفيف دمشقية (بيروت: دار الفارابي، 2001).

- تيرمان، كريستوفر. الحملاتُ الصليبية (أكسفورد: منشورات جامعة أكسفورد، 2004)، ص 1. (بالإنجليزية).

- روبنسون، بنيدكت سكوت. الإسلام والأدبُ الإنجليزي المبكر: سياسة الرومانس من سبنسر إلى ميلتون (نيويورك: بالغريف ماكميلان، 2007).

- زابوروف، ميخائيل. الصليبيون في الشرق، ترجمَه إلى العربية إلياس شاهين (موسكو: دار التقدم، 1986).

- سعيد، إدوارد. الاستشراق، ترجمة محمد عناني (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2008).

- سعيد، إدوارد. تغطية الإسلام، ترجمة محمد كرزون (دمشق: دار نينوى، 2011).

- عبد الرحمن، قيس محمود. الإسلام والمسلمون والغربُ وقضية الإرهاب: دراسةٌ مقارنة في رواية إيمي والدمان " التقديم للجائزة" ورواية ميشيل هوليبك "استسلام"، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2018. (بالإنجليزية).

- عتوم، محمد محمود. شخصية الأصوليّ في الرواية الحديثة: أورهان باموق "الثلج" ومحسن حميد "الأصوليُّ المتردِّدُ" في المنظور، رسالة ماجستير، جامعة جرش، 2017. (بالإنجليزية).

- علي، سيبان حسن. "القيمُ الحضاريةُ لمعارك صلاح الدين: معركة حطينَ وفتحُ بيتِ المقدس أنموذجاً"، مجلة دهوك، المجلد 24، العدد 1(العلوم الإنسانية والاجتماعية)، ص 463-492.

- فيلد، ريتشارد وارين. سيوف الإيمان (هانتغدون فالي- الولايات المتحدة، سترايدر نولان ميديا، 2010). (بالإنجليزية).

- كراج، كينيث. المسيحيُّ العربيُّ: تاريخ في الشرق الأوسط (لويسفيل، كي: ويستمنستر/ منشورات جون نوكس،1991).(بالإنجليزية).

- لويس، برنارد. الإسلام والغرب، ترجمة فؤاد عبد المطلب (عمان: دار زهران، 2014).

- ليونز، جوناثان. الإسلام بعيونٍ غربية: من الحملاتِ الصليبيةِ إلى الحرب على الإرهاب (نيويورك" منشورات جامعة كولومبيا، 2014). (بالإنجليزية).

- مورغان، مايكل هاملتون. التاريخُ الضائع لأعلام المسلمين، ترجمَه وقدمَ له فؤاد عبد المطلب (عمان: وزارة الثقافة الأردنية، 2016).

- نيكول، ديفيد. حطين 1187: الانتصار العظيم لصلاح الدين (لندن: أوسبري، 1993).

- هنتنغتون، صموئيل. صدامُ الحضارات وإعادةُ بناءِ النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود محمد خلف (بنغازي: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1996).

- هونكه، زيغريد. شمس العرب تسطع على الغرب (عمان: وزارة الثقافة الأردنية، 2013).

- يوسف، نسرين توفيق. "سيوف الإيمان لريتشارد وارين فيلد: تناظرٌ تاريخيٌّ بين الحملة الصليبية الثالثة والحادي عشر من أيلول/سبتمبر"، المجلة الدولية للفنون والعلوم، مج 8، ع 8 (2015)، ص 273-281.

- يوسف، نسرين توفيق. تمثيلاتٌ معاصرةٌ للحملة الصليبية الثالثة في نصوصٍ بريطانيةٍ وأمريكية، رسالة دكتوراه، جامعة ليستر في بريطانيا عام 2017.

المراجع الإنجليزية:

- Abdul Rahman, Qais Mahmoud Ali. *Islam, Muslim and the West and the Issue of Terrorism: A Comparative Study in the Two Novels of Amy Waldman's Submission and Michael Houellepeq's Submission*. M.A. Thesis, Jerash University, 2018.

- Al- Museidin, Amer Ibrahim. *The Representation of Gulf War in Modern British Novel: Andy McNab and Frederick Forsyth in Perspective*. MA. Thesis, Jerash University, 2015.
- Al- Otoum, Mohammad Mahmoud Saleh. *The Character of the Fundamentalist in The Modern Novel: Orhan Pamuk's Snow and Mohsin Hamid's The Reluctant Fundamentalist in Perspective*. M.A. Thesis, Jerash University, 2017.
- Al-Marazeeq, Jalal Abdullah. *Repressentation of Muslims and Arabs in Modern American Novel: Ralph Peters and Richard Warren Field in Perspective*. M.A. Thesis, Jerash University, 2014.
- Cragg, Kenneth. *The Arab Christian: A History in the Middle East* (Louisville, Ky.: Westminster/John Knox Press, 1991).
- Lyons, Jonathan. *Islam through Western Eyes* (New York: Columbia University Press, 2014).
- Nicolle, David. Hattin 1187: Saladin's Greatest Victory (London: Osprey, 1993).
- Richard Warren Field, *The Swords of Faith* (Huntinton Valley: Strider Nolan Media, 2010).

- Robinson S. Benedict, *Islam and early modern English literature: the politics of romance from Spenser to Milton.* New York: Palgrave Macmillan, 2007).

- Tyerman, Christopher. *The Crusades: A Very Short Introduction* (Oxford: Oxford University Press, 2004).

- Yousef, Nasreen Tawfiq. *Contemporary Representations of the Third Crusade in British and American Texts*, Ph.D. Thesis, School of Arts, University of Leicester, 2017.

- Yousef, Nasreen Tawfiq."Richard Warren Field's The Swords of Faith: A Historical Analogy between the Third Crusade and the 9/11". *International Journal of Arts and Sciences.* 8.8 (2015) 273–281. Print.